عَظَمَةُ اللهِ
كما تتجلَّى في كتابهِ العظيم
محمد خير رمضان يوسف
سوزدين

عظمةُ الله

كما تتجلَّى في كتابهِ العظيم

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤٦ هـ

مقدمة

الحمد لله العليِّ العظيم، والصلاة والسلام على النبيِّ الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

"عظمة الله تتجلَّى في كتابه العظيم" تفسيرٌ موضوعي لآيات كريمة تحمل معاني جليلة في عظمة الله تعالى، أو تلمح إليها ويُستَنتجُ منها، من خلال توزيعها على موضوعات، مثل القدرة والخلق، والملك والتدبير، والأمر والحُكم، والإعجاز والتحدي، والعقوبات الإلهية، والعلم الشامل، والمشيئة، والضرِّ والنفع، والعزَّة والنصر... وغيرها.

ولم أتقصَّ جميعَ الآياتِ في الموضوع، ولكن اكتفيتُ بما تدلُّ عليه وتوضحه، وقد أزيد.

واعتمدت فيه على التفسير الذي وفقني الله لوضعه (الواضح في التفسير)، الذي أعددته وهذَّبته واستخلصته من تفاسير جليلة.

وهدفي منه العبودية لله، والتقرب إليه، والدعوة إلى تعظيمه، الذي يؤدي إلى الرهبة والخشوع، ثم التقوى، فالطاعة. وفائدته تعود على الإنسان، فإن الله غنيٌّ عن ذلك.

{وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

محمد خير يوسف

١٦ ربيع الأول ١٤٤٦ هـ، ٢٠٢٤ م

إستانبول

الله عظيمٌ في ذاته

الله عظيم، لا يَعظُمُ عليه شيء.

قالَ سُبحانهُ في آخرِ آيةِ الكرسي: {وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}.

فهوَ المتَفرّدُ بالعلوّ والعظَمة، والجلالِ والجبَروت، الرفيعُ فوقَ خَلْقِه، المتعالي عنِ الأشياءِ والأمثال، الكبيرُ الذي لا شيءَ أعظمُ منه.

ومهما عَلا إنسانٌ فلا يتجاوزُ مقامَ العبوديةِ للهِ العَظيم!

وهو {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} [سورة آل عمران: ٢]:

الحيُّ الدائمُ الباقي، الذي لا يَعتريهِ الموتُ، ولا سبيلَ للفَناءِ إليه، فهوَ ذو حياةٍ أزليَّةٍ لا بِدايةَ لها، وأبديَّةٍ لا نهايةَ لها.

وهوَ دائمُ الوجود، قائمٌ بتَدبيرِ كلِّ شَيءٍ وحفظِه، لا حركةَ للكونِ ولا حياةَ لمن فيهِ بدونِه، لا يَطرأ عليه فُتورٌ ولا يَغْلِبُ عليهِ وسَنٌ ولا نُعاس، فضلاً عنِ النومِ المستَغرِق، فهوَ مُنَزَّهٌ سُبحانَهُ عن هذا وذاك، لا يَغفُلُ عن شَيءٍ لحظَة.

وهو {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [سورة الرعد: ٩]:

وهوَ سُبحانَهُ يَعلمُ ما غابَ عن حِسِّ البشَرِ ونَظَرِهم، ويَعلمُ ما يُشاهِدونَه، لا يَغيبُ عنهُ أمر، وهوَ الكبيرُ فكُلُّ شَيءٍ دونَه، وهوَ المستَعلي على كُلِّ شَيء، بذاتِه، وعِلمِه، وقُدرَتِه، وسَائرِ صِفاتِه.

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [سورة الأنعام: ١٨، ٦١]:

هو القَاهرُ المتعَال، الذي خضعَ كلُّ شيءٍ لعظَمتِه، الغالِبُ الذي ذَلَّتْ لهُ الجبابِرة، القادِرُ الذي عَنَتْ لهُ الوجوه. لا يُعجِزهُ شَيءٌ ممّا يُريد، ولا يَحُولُ بينَهُ وبينَ ما يريدُهُ بعِبادهِ قوَّةٌ أو عائق.

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [سورة الحديد: ٣]:

هوَ الأوَّلُ بلا ابتِداء، فليسَ قَبلَهُ شَيء، والآخِرُ بعدَ فَناءِ كُلِّ شَيء، فليسَ بعدَهُ شَيء، فلا انتِهاءَ له، ولا انقِضاءَ لوجودِه. وهوَ الظَّاهِرُ في وجودِهِ بالدَّلائلِ القَطعيَّة، فليسَ فوقَ ظُهورِهِ شَيء، لدلالَةِ الآياتِ الباهِرَةِ عليه. وهوَ الباطِنُ فليسَ دونَهُ شَيء، فلا أحدَ يُدرِكُ كُنهَهُ سُبحانَه، لا عَقلاً ولا حِسًّا. وقد أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَيء، فلا يَخفَى عَليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، ولا ظاهِرٌ ولا باطِن.

ومن جلالةِ أسمائِهِ وعظمتِها ودلالتها:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}:

هوَ اللهُ الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِواه، الذي يَعلَمُ جَميعَ المخلوقاتِ المشاهَداتِ لنا والغائباتِ عنَّا، فلا يَخفَى عَليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، في الأرضِ ولا في السَّماء، هوَ ذو رَحمَةٍ عَظيمَةٍ في الدُّنيا وفي الآخِرَة، قد وسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيء.

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}:

هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، فلا شَريكَ له.

مالِكُ جَميعِ الأشياءِ والمتصَرِّفُ فيها وَحدَه.

القُدُّوسُ: الطَّاهِرُ المنزَّهُ عمَّا لا يَليقُ به، فلهُ الأسماءُ الحُسنَى والصِّفاتُ العُلا.

السَّلامُ: الذي يُعطي السِّلمَ والأمانَ لعِبادِهِ المؤمِنينَ المتَّقينَ فلا يُعَذِّبُهم. أو السالِمُ مِن كُلِّ عَيبٍ وآفَة.

المؤمِنُ: الذي صدَّقَ رسُلَهُ فيما بلَّغوهُ عنه، إمَّا بالوَحي المنزَّلِ عَليهم، أو بتَأييدِهم بالمعجِزاتِ والأدلَّة.

المهَيمِنُ: الحافِظُ لكُلِّ شَيء. أو الرَّقيبُ والشَّاهِدُ على خَلقِهِ بأعمالِهم.

العَزيزُ: الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه. أو الذي لا مَثيلَ له.

الجبَّارُ: العَظيمُ الذي لا يُنالُ ولا يُنافَسُ في فِعلِه.

المتكبِّرُ: الذي لا يَليقُ الكبرياءُ إلاّ بعظمَتِه، فلا يُشرِكُهُ في صِفَةِ الكبرياءِ أحَدٌ مِن خَلقِه، لأنَّ صِفَةَ المخلوقِ التَّواضُعُ والتَّذَلُّل، واللهُ مُتَكبِّرٌ ومُتَعالٍ على خَلقِهِ بصِفاتِهِ العَظيمَةِ التي لا يُشارِكُهُ

فيها الخَلق. وقالَ بَعضُهم: المتكبّرُ عمَّا لا يَليقُ به، المنزَّهُ عن جَميعِ العُيوبِ والظُّلمِ والسُّوء. أو المتَكبّرُ على عُتاةِ خَلقِهِ إذا نازَعُوهُ العَظمَة، فيَقصِمُهم. يَقولُ الفَخرُ الرازيُّ ما مُختصَرُه: "المتَكبّرُ" في حقّ الخَلقِ اسمُ ذَمّ، لأنَّ المتَكبّرَ هوَ الذي يُظهِرُ مِن نَفسِهِ الكِبْر، وذلكَ نَقصٌ في حقّ الخَلق، لأنَّهُ ليسَ لهُ كِبْرٌ ولا عُلوّ، بل ليسَ لهُ إلاّ الذِّلَّةُ والمسكنَة، فإذا أظهرَ العُلوَّ كانَ كاذِبًا، فكانَ ذلكَ مَذمُومًا في حقِّه. وأمَّا الحقُّ سُبحانَه، فلهُ جَميعُ أنواعِ العُلوّ والكبرياء، فإذا أظهرَهُ فقد أرشدَ العِبادَ إلى تَعريفِ جَلالِهِ وعلوّه، فكانَ ذلكَ في غايَةِ المدحِ في حَقِّهِ سُبحانَه. اهـ.

تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ عن إشراكِ المشرِكين، وأقوالِ الكافِرين.

{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الحشر: ٢٢-٢٤]:

هوَ اللهُ الخالقُ: الذي أوجدَ الأشياءَ وأبدَعَها مِن غَيرِ احتِذاءٍ بمِثالٍ سابِق.

البارِئُ: الذي قدَّرَ الأشياءَ وأبرزَها إلى الوجودِ مِنَ العدَم.

المصَوِّرُ: الذي أوجدَ صُورةَ المخلوقاتِ وكيفيَّاتِها كما أرَاد، ليُميِّزَ بَعضَها عن بَعضٍ بسِماتٍ ومَلامِحَ مُعيَّنة.

لهُ أحسَنُ الأسماءِ وأجَلُّها، لأنَّها تُنبِئُ عن أحسَنِ المعاني وأشرَفِها.

يُسَبِّحُ لهُ كلُّ مَخلوقٍ في الأرضِ وفي السَّماء، ويُنَزِّهُهُ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيب، ولو لم نَفقَهْ تَسبيحَ بعضِ المخلوقات. وهوَ الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ في مُلكِه، الحَكيمُ فيما يَخلقُ ويُقَدِّرُ ويَشرَع.

{وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الجاثية: ٣٧].

أي: لهُ كَمالُ العَظمَةِ والمُلْكِ في السَّماواتِ والأرض، وهوَ العَزيزُ الذي لا يُغلَب، الحَكيمُ فيما يَقولُ ويَفعَل، ويَقضي ويُقَدِّر.

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [سورة الشورى: ١١]:

ليسَ كَمِثلِ اللهِ شَيء، فلا يُماثِلُهُ أحَدٌ مِن خَلقِه، ولا نَظيرَ لهُ ألبتَّة، وهوَ السَّميعُ لكُلِّ ما يَقولُهُ الخَلق، البَصيرُ بكُلِّ الموجوداتِ وأحوالِها.

{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [سورة الأنعام: ١٠٣]:
لا تَراهُ العُيونُ في الدُّنيا وإنْ كانت تَراهُ في الآخِرَة، وهوَ يُحيطُ بها ويَعرِفها على حَقيقَتِها، لأنَّهُ خالِقُها. وهوَ الرَّفيقُ بعبادِه، الرحيمُ بأوليائه، الخبيرُ بهم.

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً} [سورة فاطر: ١٠]:
مَن أرادَ أن يَكونَ قَويًّا عَزيزًا، مُهابًا مَنيعًا، فليتَعزَّزْ بطاعَةِ الله، وليَتقَوَّ بالتقَرُّبِ إليهِ والالتِزامِ بأوَامرِه، فإنَّهُ بذلكَ يَحصُلُ لهُ مَقصُودُه، فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله، فهوَ المالِكُ والمتصَرِّفُ في شُؤونِ خَلقِه، فيُعِزُّ مَن يُطيعُه، ويُذِلُّ مَن يُخالِفُه، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً.

{وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً} [سورة الأحزاب: ٢٥]:
واللهُ قَويٌّ فيما يُريدُه، لا تَمنَعُهُ قُوَّةٌ مِن ذلك، عَزيزٌ في انتِقامِه، غالِبٌ على كُلِّ شَيء.

وقالَ الله تعالَ في سورة المنافقون:
{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الآية ٨].
تفسيرُها: ولله الغَلبَةُ والقوَّةُ ولِمَن أعَزَّهُ اللهُ تَعالَى مِن رَسُولِهِ والمؤمِنين، لا لغَيرِهم. والعِزَّةُ المستَمدَّةُ مِن عِزَّتِهِ تَعالَى لا تَهونُ ولا تَلين، ولا تَخرُجُ مِنَ القَلبِ إلاّ أنْ يَضعُفَ فيهِ الإيمَان، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، وضَلالِهم، وغُرورِهم.

وعندما سألَ فرعونُ موسى: من هو ربُّ العالمينَ الذي تدعو إلى الإيمانِ به؟ وكان يدَّعي أنه هو الربّ،
{قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ}.
{قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}.
{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}.
[سورة الشعراء: ٢٤، ٢٦، ٢٨].

وفي صفاتٍ ذكرها الله تعالَى لنفسهِ تتجلَّى عظمته:

(سورة النجم: ٤٣-٤٨)

{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى}:

وأنَّهُ تَعالَى أوجدَ في عِبادِهِ الضَّحِكَ والبُكاء، والسُّرورَ والحُزن، وأسبَابَهما، وهُما مُختَلِفان.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا}:

وأنَّهُ سُبحانَهُ خلقَ الموتَ والحياة، فأماتَ مَن أحياهُ في الدُّنيا، وأحيا مَن أماتَهُ يَومَ البَعث.

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}:

وأنَّهُ بقُدرَتِهِ خلقَ مِن نَوعِ الإنسَانِ وأنواعِ الحيَوانِ الزَّوجَين: الذَّكرَ والأُنثَى.

{مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}:

مِن نُطْفَةِ الذَّكرِ إذا تدفَّقَتْ وصُبَّتْ في رَحِمِ الأُنثَى.

{وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}:

وأنَّ عليهِ سُبحانَهُ إعادَةَ الأحيَاءِ بعدَ الإماتَةِ يَومَ القِيامَة، وفاءً بوَعدِه.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى}:

وأنَّهُ تَعالَى أعطَى عِبادَهُ وملَّكَهم ما يُدَّخَرُ وما يُرضي مِن مَالٍ ومَتاع.

وقالَ سُبحانهُ مبيّنًا عظمته، ومذكّرًا بقدرته:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الزمر: ٦٧]:

إنَّ المشرِكينَ ما عَظَّموا اللهَ تَعالَى حقَّ عَظمَتِهِ حينَ عَبدُوا معَهُ غَيرَه، وطلَبوا مِن رَسُولِهِ أنْ يَعبُدَ غَيرَه، وهوَ القادِرُ العَظيم، الذي بيدِهِ كُلُّ شَيء، والأرضُ وما فيها قَبضَتُهُ يَومَ القيامَة، والسَّماواتُ جَميعُها مَطويَّاتٌ بيَمينِه، فتَعالَى وتَقدَّسَ عمَّا يَقولُهُ المشرِكون.

وفي صَحيحِ البخاريّ قَولُهُ ﷺ: "يَقبِضُ اللهُ الأرض، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يَقول: أنا المِلك، أينَ مُلوكُ الأرض؟".

العظمة في القدرة والخَلق

وتَبدو عظَمةُ اللهِ تعالَى للإنسَانِ في مخلوقاتهِ أكثر؛ لأنه يَراها بنفسِه، فيسلِّمُ بها، ولا يستَطيعُ إنكارَها. وما لم يرَ منها كثير.

منها الملائكة، التي خلقَها من نور:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فاطر: ١]:

الحَمدُ للهِ والثَّناءُ عَليهِ بما هوَ أهلُه، مُوجِدِ السَّماواتِ والأرضِ ومُبدِعِهما على غَيرِ مِثالٍ سابِق، جاعلِ الملائكةِ وسائطَ بينَهُ وبينَ خَلقِهِ لتَبليغِهم أوامِرَه، ذَوي أجنِحَةٍ يَطيرونَ بها، منهم مَن لهُ جَناحان، ومنهم مَن لهُ ثَلاثَة، ومنهم مَن لهُ أربَعَة، ومنهم مَن لهُ أكثَر، ويَزيدُ اللهُ في الخَلْق، أو الأجنِحَةِ، ما يَشاء، واللهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء، لا يَصعُبُ عَليهِ أمر.

ومنها الجان:

{وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} [سورة الرحمن: ١٥]:

يَعني مِن لهَبِ نارٍ خالِصٍ شَديدَةِ الحرارَة.

وهم يرونَنا ولا نَراهم:

{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ [سورة الأعراف: ٢٧].

وقالَ سُبحانهُ مذكِّرًا ومنبِّهًا:

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة: ٢٨].

أي: كيفَ تَجحَدونَ وجودَ الخالقِ وقد كنتُم عَدَماً فأخرجَكم إلى الوجود، ثمَّ يُميتُكم موتةَ الحقّ، ثمَّ يُحييكم مرَّةً أخرَى عندَ البَعث؟

وقالَ الله تعالَى في خلقِ السماءِ وإحكامه:

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ} [سورة الملك: ٣]:

الذي خلقَ سَبعَ سَماواتٍ، طبقَةً فوقَ طبقَة، لا تَجِدُ في خَلقِ اللهِ اختِلافًا وعدَمَ تَناسُب، فلا نَقصَ فيهِ ولا خلَل، فتأمَّلْ في السَّماء، وابحَثْ وتدَبَّر، هل ترَى فيها مِن شُقوقٍ وفُروج؟

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك: ٤]:

ثمَّ أعِدِ النظَرَ مرَّتَينِ وأكثَر، فإنَّكَ لن تَجِدَ فيها عَيبًا وتصَدُّعًا، وسيَعودُ بصَرُكَ صاغِرًا وهوَ مُتعَبٌ مِن كثرَةِ النظَرِ والمراجعَة، دونَ أن يَظفَرَ بخلَلٍ أو نَقصٍ فيها.

وقالَ سُبحانهُ مذكِّرًا:

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافر: ٥٧]:

إنَّ خَلقَ السَّماواتِ والأرضِ العَظيمَتين، وما بَثَّ اللهُ في السَّماءِ الدُّنيا وَحدَها مِن مَلايينِ النُّجومِ والكواكبِ المتَناثِرَة، معَ تَوازُنٍ وتَناسُقٍ ونِظامٍ دَقيق، وما في الأرضِ مِن ماءٍ ونَباتٍ وشَجَر، وبِحارٍ وقِفار، ومَعادِنَ وكنُوز، وغَيرِها... كُلُّ هذا أكبَرُ وأعظَمُ مِن خَلقِ الإنسَان، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُفكِّرونَ فيه، ولا يَتصوَّرونَ عَظمَةَ هذا الكونِ الكبيرِ ونِسبتَهم إليه، ولا يَستَدِلُّونَ بهِ على قُدرَتِهِ تعالَى على إعادَةِ إحيائهم بَعدَ الموت.

وقالَ مبيِّنًا قدرتَهُ على الخلقِ والبعث:

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً} [سورة الإسراء: ٩٩]:

ألا يَتفَكَّرُ هؤلاءِ المشرِكونَ ويَعلمونَ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، بعِظَمِهما وسَعَتِهما وشِدَّتِهما وإحكامِهما وما فِيهما، قادِرٌ على أنْ يَخلُقَهم أحياءً بعدَ أنْ كانوا أمواتًا، وهم أصغَرُ وأضعَفُ مِنهما؟ وقد جعلَ مَوعِدًا لموتِهم أو بَعثِهم، سيَأتيهم لا مَحالة، ولكنْ أبَى الكافِرونَ إلاّ جُحودًا بآياتِنا، وتَماديًا في باطِلِهم.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [سورة لقمان: ١٠]:

الذي خلقَ السَّماواتِ السَّبعَ العاليَةَ الواسِعَةَ بغَيرِ أعمِدَةٍ وركائزَ ترَونَها.

يَذكرُ العُلماءُ في هذا العَصرِ أنَّهُ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الجَذْبِ التي لا تُرَى، فيما بينَ المجَرَّاتِ والكواكبِ والكُتَلِ التي في السَّماء.

وألقَى في الأرضِ جِبالاً ضَخمَةً مُرتَفِعَةً لتَثبُتَ بها ولا تَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ فيها مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الحيَوانات، وأنزَلنا مِنَ السَّحابِ مطَرًا، فأنبَتنا بسبَبِهِ مِن كُلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ الشَّجَرِ والنَّباتِ ما هوَ حسَنٌ مَنظَرُه، ومُفيدٌ نَوعُه.

{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة لقمان: ١١]:

هذا ما خَلَقَهُ اللهُ وقدَّرَه، فأخبِروني ما الذي خلقَتْهُ الأصنامُ أو غَيرُها ممَّا تَعبُدونَهُ وتَدَّعونَ أُلوهيَّتَه؟ بلِ المشرِكونَ في جَهلٍ وعمًى واضِحٍ بيّن.

وقالَ العليُّ العظيم: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة البقرة: ١١٧]:

فهو سُبحانهُ خالقُ السمَاواتِ والأرضِ على غيرِ مثالٍ سَبَق، في وَحدةٍ وتَناسقٍ كونيّ رائع، وهندسَةٍ ونظامٍ فائق، وتَوازنٍ بيئيّ وحيوانيّ مُوافِق، يَدُلُّ جميعُها على الواحدِ الأحد، فهو بارئها ومُوجِدُها مِن غيرِ أصل، وعلى غيرِ مثال، وإنَّما أمرُهُ – جَلَّتْ عَظَمَتُهُ – إذا قدَّرَ أمراً وأرادَ إيجادَهُ قال: "كُنْ"، فيوجَدُ على وَفْقِ ما أراد.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ} [سورة الأنعام: ٧٣]:

وهوَ الذي خلقَ السَّماءَ والأرضَ وأبدعَ صُنعَهما على غيرِ مثالٍ سَبق، بالحقِّ والعَدل، لا عن عَبَثٍ وبُطلان، ويوجِدُ يومَ القيامَةِ وما فيها مِن أشياءَ بقولهِ كنْ فيَكون، كبَعثِ الأمواتِ للحِساب، فقولهُ الحقّ، صِدقاً وواقِعاً، ووَعدُهُ كائنٌ لا مَحالة..

فالعظمةُ تَبدو من (كُنْ)، وهو ما لا يَقدرُ عليهِ سِوَى الله! {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل: ٤٠].

فالأمرُ سهلٌ على الله، لا فرقَ عندهُ بين خلقِ نفسٍ واحدةٍ أو مئاتِ وملايينِ الأنفسِ دفعةً واحدة! إنه عظيم، عظيمٌ جدًّا، قادر، لا يُعجِزهُ شيء، ولا يَصعبُ عليه أمر!
قالَ ربُّنا:
{مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة لقمان: ٢٨]:
ما خَلقُكم جَميعًا أيُّها النَّاس، ولا بَعثُكم بعدَ الموت، إلاّ كخَلقِ وبَعثِ نَفسٍ واحِدَة، فالكُلُّ عَلى اللهِ سَهلٌ يَسير، ولا يتعَذَّرُ عَليهِ شَيء، وأمرُهُ سُبحانَهُ لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ وتِكرار، إنَّما يَقولُ للشَّيء، أو الأشياء: كُنْ، فيَكون. واللهُ يَسمَعُ جَميعَ أقوالِكم، بَصيرٌ بأعمالِكم كُلِّها.

والقدرةُ مِن القوة، بل قالَ البيهقيُّ في (الأسماء والصفات): "صفةُ القوة، وهيَ القدرة". قالَ الله تعالى:
{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات: ٥٨]:
تفسيرُها: إنَّ اللهَ هوَ الذي يَرزُقُ جَميعَ الخَلق، فالكُلُّ مُفتَقِرٌ إليه، وهوَ الغَنيُّ عَنهم، القَويُّ المقتَدِر، الشَّديدُ القوَّة، القادِرُ على كُلِّ شَيء.

××× ××× ×××

تكوينُ المخلوقات:
قالَ الله تعالَى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنبياء: ٣٠].
تفسيره: وخَلقنا مِنَ الماءِ كُلَّ ذي حَياة، فهوَ أصلُ كُلِّ حَيّ، وهوَ أعظَمُ مَوادِّه، وأكثَرُ ما يُحتاجُ إليهِ ويُنتَفَعُ به. أفلا يَعلَمونَ ذلكَ ويَتدَبَّرونَهُ ليؤمِنوا ويَهتَدوا؟
ويَقولُ العُلماء: إنَّ جَميعَ الكائناتِ الحَيَّةِ مُكوَّنَةٌ مِن ٨٠٪ منَ الماء، وإنَّ جِسمَ الإنسانِ ٧٠٪ منهُ ماء، ولا يَقدِرُ على العيشِ أكثرَ مِن أربَعَةِ أيَّامٍ بدونِ ماء.

وذكرَ رَئيسُ مَعهَدِ هادو للبُحوثِ العلميَّةِ في طوكيو في مؤتَمرٍ عِلميّ، أنَّ للمَاءِ ذاكِرَةً، وأنَّهُ صُورَةٌ مِن صُوَرِ الطَّاقَةِ الكامِنَة، التي تُمَكِّنُهُ مِنَ السَّمعِ والرُّؤيَةِ والشُّعورِ والانفِعال، واختِزانِ المعلوماتِ ونَقلِها والتأثُّرِ بها، إلى جَانبِ تأثيرِها في تَقويَةِ مناعَةِ الإنسان، وربَّمَا عِلاجِهِ أيضًا مِنَ الأمراضِ العُضويَّةِ والنفسيَّة.

والله يَخلقُ ويعلِّمُ خَلقَهُ وظيفتَه.
قالَ موسى عليهِ السلام: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [سورة طه: ٥٠]:
رَبُّنا الذي أعطَى كُلَّ شَيءٍ ما يَنبَغي لهُ وما يُصلِحُهُ ويُوافِقُه، على الوَجهِ اللّائقِ بهِ شَكلاً ومَضمونًا، وهيَّأهُ لوَظيفَتِهِ التي يَقومُ بها في الحَياة.

ويجعلهُ في أحسنِ خلقٍ مما يناسبُه:
{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [سورة السجدة: ٧]:
الذي أحسنَ خَلْقَ الأشيَاء، فأتقنَها وأحكمَها، وجَعلَ لها ما يُناسِبُها ويُوافِقُها شَكلاً ومَضمونًا، كما تَقتَضيهِ الحِكمَة، لا تَجِدُ فيها نَقصًا واختِلافًا.

{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [سورة غافر: ٦٤]:
وجعَلكم في أحسَنِ الأشكالِ مِن بينِ الخَلق.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين: ٤]:
لقد خلَقنا جنسَ الإنسَانِ في أفضَلِ صُورَة، وأعدَلِ قامَة، وأحسَنِ تَركيب.

وقالَ سُبحانه:
{إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [سورة الأنعام: ٩٥]:

إنَّ اللهَ بقُدرتهِ وإبداعهِ في خَلْقِه، شَقَّ الحبوبَ والنَّوَى تحتَ الأرضِ لتُنتِجَ الزُّروعَ والثِّمارَ بأنواعِها وأشكالِها وطُعومِها، فيُخرِجُ الحيَّ ممّا يَنمو مِن هذهِ الحبوبِ اليابسَةِ الميتة، وهوَ مُخرِجُ الميّتِ منَ الحيّ، كإخراجِ ما يُستفادُ منهُ للطَّعمِ والقُوتِ منَ الحيوانات، أو أضرابِ ذلكَ مما يُخْرَجُ منها للعُطورِ والصِّناعات، وكذلكَ دَوْرَةُ الخلايا في الحيوانِ والنَّباتِ التي تَكونُ في تجدُّدٍ مستَمِرّ، فتَموتُ القديمةُ ويَنشأ ما هو جَديد... واللهُ هوَ الذي خَلقَ فيها كُلَّ هذا، بعلمهِ وحِكمتهِ وقُدرتِه، فكيفَ تُصْرَفونَ عنِ الحقِّ إلى الباطِل، وتَعبُدونَ معَ اللهِ ما لا قُدرةَ لهُ على خَلقِ شَيءٍ مِن هذا أو أقلَّ منه؟!

{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام: ٩٦]:

وهوَ الذي شقَّ ظُلمةَ اللَّيلِ بالصَّباحِ المضيءِ ليؤذِنَ بالعَملِ والنَّشاط، وجعلَ الليلَ مُظلِماً تَسكنُ فيه الأشياء، ويَرتاحُ فيهِ الإنسانُ مِن عملِ النَّهار، فيَهدأُ ويَنام.

وجعلَ الشَّمسَ والقمرَ دَليلاً وضَبْطاً لحِسابٍ مُقدَّرٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّر، لتَعرِفوا بهِ الأوقاتَ والتَّواريخ، في العِباداتِ والمعامَلاتِ والمعاهَدات، بالسَّاعاتِ والأيَّام والشُّهورِ والسَّنوات.

وهذا كلُّهُ مِن تَقديرِ اللهِ العَزيز، الذي لا يَصعُبُ عليهِ شَيء، العَليمِ الذي لا يَغِيبُ عنهُ شيءٌ ممّا بثَّهُ في الكَونِ كلِّه.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام: ٩٧]:

وهوَ اللهُ الذي أنشَأَ النُّجومَ وقدَّرها في أبعادٍ معيَّنةٍ بعضِها عن بَعض، وفي جِهاتٍ مُختلِفة، معَ سُطوعِها في أوقاتٍ محدَّدة، لتكونَ لكم دَليلاً إلى معرفةِ الجهاتِ في اللَّيالي المظلمة، في البرِّ والبحر.

وقد بيَّنا هذهِ الآياتِ التي فيها ذِكْرٌ لنِعَمِ اللهِ لمن يَعقِلُ ويَتدبَّر، ويَعرِفُ الحقَّ فيتَّبعُهُ ويَعملُ بموجبِه.

{وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ٩٩]:
وهوَ الذي أنزلَ الأمطارَ منَ السَّحابِ ليَنتفِعَ بها العِباد، فأخرَجنا بالماءِ كلَّ أنواعِ النبَاتات، ومِن هذهِ النبَاتاتِ أخرَجنا الزُّروعَ والأشجارَ الخَضراء، وأخرَجنا مِن هذهِ الأشجارِ والنباتاتِ الثِّمارَ والحبوبَ المتراصَّة، ومِن طلْعِ شَجرِ النخيلِ أخرَجنا أغداقاً فيها ثَمَرُ الرُّطَب، مُنثَنيةً، وقَريبةَ التناول.

ونُخرِجُ بالماءِ بَساتينَ كثيرةً مُنتَشِرَةً في الأرضِ منَ الأعناب، وكذلكَ الزَّيتون، والرمّان، وبعضُ ذلكَ مُتشابِهٌ وبعضُهُ غيرُ مُتشابِه، في الهَيئةِ والمِقدار، واللَّونِ والطَّعم، وانظُروا وتفَكَّروا في ثَمَرِ الزَّيتونِ عندما يَنْضَج، وإلى ثَمَرِ الرمّانِ كذلك، وقد تجمَّعتْ حُبَيباتُهُ وتراكبَ بعضُها فوقَ بعض، في شكلٍ هَندسيٍّ جميل، معَ طَعمٍ لذيذٍ وفائدةٍ صحِّية، فيهِ وفي الزَّيتون، وغيرِهما منَ الثِّمارِ المتنوِّعة، وإنَّ في ذلكَ كلِّهِ أدلَّةً واضحةً على قُدرةِ اللهِ وبَديعِ صُنعه، وعلى عَظمتهِ وحِكمتهِ ووَحدانيَّته، لمن أرادَ أنْ يَستَدِلَّ بها على الإيمانِ به، وتَصديقِ ما أنزَلَه.

وفي عظمةِ الخَلقِ كما يَبدو في آيَتي الشمسِ والقمرِ أيضًا، قولُ الجليل:
{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة يونس: ٥]:
هوَ الخالِقُ الحقّ، القادِرُ العَظيم، الذي جَعلَ في الشَّمسِ ضِياءً وشُعاعًا يُعطي حرارةً وضَوءًا، وهي نَجمٌ عَظيم، وكُتلَةٌ مُلتَهِبةٌ مُضيئةٌ بذاتِها. وجعلَ في القَمرِ شُعاعًا ونُورًا مِن غيرِ حَرارة، ونُورهُ مَعكوسٌ مِن نُورِ الشَّمس. وقَدَّرَ في مَسيرِهِ وتَنقُّلِهِ أنْ يَكونَ في مَنازِل، ثمَّ بُروج، يَعرِفُها عُلماءُ الفَلَكِ خاصَّة، لتَعرِفوا بحركةِ الشَّمسِ والقَمرِ عددَ الأيّامِ والشُّهورِ والسِّنين، وتَعرِفوا مَواسِمَ زرُوعِكم وحِسابَ مُعاملاتِكم وآجالَها، وفوائدَ أخرَى لهما يَعرِفُها الإنسانُ في حياتهِ العِلميَّةِ والعمَليَّة. ما خَلقَ اللهُ ذلكَ كُلَّهُ إلاّ لحِكمةٍ عظيمةٍ ومَصلحَةٍ مؤكَّدة. ويُبيّنُ هذهِ الآياتِ والأدلَّةَ لمن عَلِمَ الحِكمةَ مِن خَلقِ الله، واستَدلَّ بهِ على وُجودِهِ وإبداعِهِ وحِكمتِه.

{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [سورة يس: ٤٠]:
كُلُّ شَيءٍ في هذا الكَونِ يَسيرُ بنِظامٍ ومِيزانٍ ودِقَّةٍ مُتناهيَة، فلا تَصطَدِمُ الشَّمسُ في سَيرِها بالقمَر، فإنَّ لكُلٍّ منهما مجرًى مُحدَّدًا لا يتَجاوَزُهُ في سَيرِه، ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ فيَأتي قَبلَ أوانِه، فإنَّ لكُلٍّ منهما وَقتًا مُحدَّدًا، وبِدايَةً ونِهايَة.

ومن آياتِ الله في خَلقِ الأرض:
{وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد: ٤]:
وسَطحُ الأرضِ أنوَاع، ففيهِ أجزاءٌ يُجاوِرُ بعضُها بَعضًا إلاّ أنَّها مُختَلِفَةٌ ومُتباينَة، ففيها ما يَصلُحُ للزَّرعِ وفيها ما لا يَصلُح، وبعضُها كثيرُ الإنتاجِ وبعضُها قَليل، وبعضُها رَخْوٌ وبعضُها صُلب. فمَن قدَّرَ لها أنْ تَكونَ كذلك؟
وفيها بَساتينُ كثيرةٌ من أشجارِ العِنَب، وزَرعٌ فيهِ أنواعُ الحُبوبِ والبُقول، ونخيلٌ: مُجتَمِعٌ ومُتفَرِّق، أو متمَاثلٌ وغيرُ متمَاثل. وكُلُّها يُسقَى بماءٍ واحِد، ولكنَّ الثِّمارَ مُختَلفَةُ الطَّعم... ونُفَضِّلُ بعضَ هذهِ الزُّروعِ والثِّمارِ على بعضِها الآخَرِ في الطَّعمِ والفَائدةِ وغيرِ ذلك.
وقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ في قَولهِ تعالَى {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ}: " الدَّقَل، والفارِسِيّ، والحُلو، والحامِض". وهوَ حَديثٌ حسَن. والدَّقَل: رَديءُ التَّمرِ ويابسُه، والفارِسيّ: نَوعٌ مِنَ التَّمر.
وفي ذلكَ آياتٌ وأدِلَّةٌ واضِحةٌ على قُدرَةِ الخَالقِ وبَديعِ صُنعِه. هذا لمنِ استَعمَلَ عَقلَهُ وتفَكَّر، وابتعدَ بنفسِهِ عنِ التَّقليدِ والهوَى.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ} [سورة الزمر: ٢١]:
ألَمْ تَنظُرْ أيُّها الإنسَانُ أنَّ اللهَ أنزلَ المطرَ مِنَ السَّحاب، فصرَفَهُ في العُيونِ والمجاري الكائنَةِ في الأرض، ثمَّ أخرجَ بهذا الماءِ زَرعًا مُختَلِفًا أنواعُهُ وأصنافُه، وأشكالُهُ وطُعومُه، ومَنافِعُه ورَوائحُه، ثمَّ يَيْبَسُ هذا الزَّرع، فتَراهُ أصفرَ لا رُوحَ فيه، بعدَ أنْ كانَ أخضرَ نَضِرًا، ثمَّ يَجعلُهُ مَهشَّمًا مُتكَسِّرًا؟

إنَّ في ذلكَ تَذكيرًا وعِظَةً لأصحَابِ العُقولِ السَّويَّة، فيَرَونَ في ذلكَ تَمثيلاً لحياةِ الإنسَان، الذي يَنمو صَغيرًا، ثمَّ يَشتَدّ، ثمَّ يَكونُ هَرِمًا، ثمَّ يَموت. وهكذا الدُّنيا إلى زَوال. ثمَّ يَكونُ بَعثٌ وإحيَاء، وحِسَابٌ وجَزاء.

وقالَ الخالقُ العَظيم:

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة الأنبياء: ٣٣]:

فكلُّ الكواكبِ ومَجموعاتِ النُّجومِ والمجرّاتِ تَدورُ حولَ نَفسِها في حركَةٍ مِحوَريَّة، وتَدورُ في مَداراتِها في حَركَةٍ انتِقاليَّة. والكونُ كُلُّهُ يَتحرَّك. وهذا دَليلٌ على وجودِ الخالقِ الحَيِّ القَيُّوم، القائمِ بتَدبيرِ هذا الكَونِ العَظيم.

وبالتدبُّرِ والتفكرِ في آلاءِ الله يتوضَّحُ للإنسانِ قدرةُ اللهِ وعظمتهُ في خَلقه:

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [سورة الأنعام: ٧٥].

وكذلكَ نُمَكِّنُ إبراهيمَ منَ النظَرِ في مالِكيَّةِ اللهِ للسَّماواتِ والأرض، ليَستَدِلَّ بذلكَ على قُدرتهِ وعَظمتهِ ووحدانيَّتهِ في خَلْقهِ ومُلكِه، وليَكونَ منَ الراسِخينَ في العِلمِ والإيمان، مُشاهَدةً ويَقيناً.

وخَلقُ عيسى عليهِ السلامُ معجزة، وإنما كانَ بقدرةِ القادر:

{مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة مريم: ٣٥]:

ما صَحَّ وما استَقامَ أنْ يَجعَلَ اللهُ لنَفسِهِ ولَدًا، وليسَ هذا مِن صِفَتِه، سُبحانَه، تقَدَّسَ وتنَزَّهَ عمَّا افتَراهُ النَّصارَى عَليه، إنَّما شَأنُهُ إذا أرادَ إحداثَ أمرٍ أنْ يَقولَ لهُ كُنْ، فيَكونُ كما يُريد.

وإنَّ مَثَلَ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِ عيسى مِن غَيرِ أبٍ، هوَ كقُدرتهِ على خَلقِ آدمَ مِن غيرِ أبٍ ولا أمّ، فقد خَلقَهُ مِنْ تُراب، وقالَ لهُ كنْ آدمَ، فكان، والذي خَلقَ آدمَ قادرٌ على خَلقِ عيسى بطريقٍ أولَى، فإنْ كانَ هذا لهُ والدة، فذاكَ ليسَ بذي والدةٍ ولا والِد. وقد أرادَ اللهُ بهذا أنْ يُظهِرَ قدرتَهُ لخَلْقِه، على غَيرِ مثالٍ سابقٍ في الخلقِ منَ الذَّكرِ والأنثَى.

قالَ سُبحانه وتعالَى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة آل عمران: ٥٩].

نظامٌ عام:

{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [سورة الذاريات: ٤٩].

معناه: ومِن كُلِّ جِنسٍ وصِنفٍ مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ خَلَقنا نَوعين: ذَكرًا وأُنثَى، لتَتذَكَّروا وتَعلَموا أنَّ خالِقَها واحِد. ومَن قَدَرَ على خَلقِها فهوَ قادِرٌ على إحيائها بعدَ مَوتِها.

××× ××× ×××

وخَلقُ الإنسانِ معجِز!

{وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [سورة الأنعام: ٩٨]:

وهوَ اللهُ الذي خَلَقكم جَميعاً مِن نَفسٍ واحِدَة، هيَ آدم، ولكمُ استِقرارٌ في أرحامِ أمَّهاتِكم، واستيداعٌ في أصلابِ آبائكم. وقد بيَّنا هذهِ الحُجَجَ والأدلَّةَ لمن يَفْطَنونَ إلى ذلكَ ويتدبَّرونَ دقَّةَ الخَلقِ وإبداعَه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً} [سورة الحج: ٥].

تفسيرُها: أيُّها المنكِرونَ للمَعاد، إذا كنتُم في شَكٍّ مِن قُدرَةِ اللهِ على بَعثِ النّاسِ بعدَ مَوتِهم، فإنَّ هُناكَ أدِلَّةً مُشاهَدَةً تُبَيِّنُ قُدرَتَهُ تَعالَى على ذلك. فقد خَلَقنا أصلَكم مِن تُراب. وقد تبيَّنَ أنَّ العناصِرَ التي تَدخُلُ في تَركيبِ جسمِ الإنسانِ هيَ العناصِرُ نَفسُها التي تَكونُ في الطِّينِ والترَاب، معَ اختِلافِ النِّسَب، وهيَ (٢٢) عُنصرًا.

ثمَّ جَعَلنا نَسلَكم مِن نُطفَة، وهيَ المنيُّ، للمرأةِ والرَّجُل، الذي يَحمِلُ ملايينَ الحيواناتِ المنويَّة.

فإذا استقرَّ المنيُّ في رَحِمِ المرأةِ وبَقيَ أربَعينَ يَومًا تحوَّلَ إلى عَلَقَة، وهيَ قِطعَةٌ منَ الدَّمِ الغَليظِ المتَجَمِّد، الذي يتعَلَّقُ بجِدارِ الرَّحِمِ ويَعيشُ على امتِصاصِ دَمِ الأُمّ.

ثمَّ تَتحَوَّلُ إلى مُضْغَةٍ تُشبِهُ قِطعَةَ لحمٍ مَمضُوغ، وهيَ تتألَّفُ مِن جُزءٍ مُخَلَّقٍ مُصَوَّرٍ تَعرِفُهُ إذا أُخرِجَ لكَ مِن داخِلِها أنَّهُ بشَرٌ سَويّ، ومِن قُرصٍ لَحميٍّ ليسَ عَليهِ تَصويرٌ ولا تخَلُّقٌ ولا أعضاء، هوَ المشِيمَة، وهما مُرتَبِطانِ معًا، يُشَكِّلانِ داخِلَ الرَّحِمِ وحدَةً لا تَنفَصِم، وإلاّ ماتَ الجَنينُ وانتَهَى الحَمْل... إنَّها مُضْغَةٌ واحِدَةٌ مُخَلَّقَةٌ وغَيرُ مُخَلَّقَةٍ في الوَقتِ نَفسِه.

ونوَضِّحُ لكم ذلكَ لتَذكُروا دَقائقَ خَلقِ الله، وعَظيمَ قُدرَتِهِ وإبداعِهِ في إنشَاءِ خَلقِهِ وأطوَارِ خَلقِهم، ونُبقِي في أرحَامِ الأمَّهاتِ ما نشَاءُ أنْ نُبقِيَهُ حتَّى يَضَعْنَه. فإذا لم نَشأ ذلكَ أسقَطنَهُ قَبلَ إتمامِ مَوعِدِ الحَمْل.

ثمَّ نُخرِجُكمْ مِنَ الأرحامِ طِفلاً لا حيلَةَ له.

ثمَّ تَكبَرونَ وتَقوَى أجسامُكم وتَكتَمِلُ حَواسُّكم، ومنكم مَن يَموتُ قَبلَ أنْ يَشتَدَّ عُودُه، ومنكم مَن يَكبَرُ حتَّى يَصيرَ شَيخًا هَرِمًا، فيَضعُفُ عَقلُهُ وقوَّتُهُ حتَّى لا يَعلمَ شَيئاً بعدَ عِلمٍ كثيرٍ وخِبرَةٍ ومِراس!

فهذا كُلُّهُ مِن تَدبيرِ اللهِ وأمرِه.

واللهُ سُبحانهُ يَخلقُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما يشاءُ وكما يَشاء، مِن ذكرٍ وأنثَى، وحَسَنٍ وقَبيح، وتامٍّ وناقِص، ومِيزةِ كلِّ واحدٍ وخصائصِه، بمشِيئتِهِ وإرادتِهِ النافِذة. فهو وحدَهُ الخالقُ المصوِّر، لا يُشارِكُهُ في أمرِهِ أحد، فهو وحدَهُ المستحِقُّ للعبادة، لهُ العزَّةُ والحِكمة، والأمرُ والتَّدبير.

قالَ عزَّ مِن قائل: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [سورة آل عمران: ٦].

وقالَ جلَّ مِن قائل:

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة النحل: ٧٨].

بيانُها: وقد أخرجَكمُ اللهُ مِن أرحامِ أُمَّهاتِكم وأنتُم لا تَنطِقونَ ولا تَعلَمونَ شَيئاً منَ الحياة، وخلقَ فيكمُ السَّمعَ لتَسمَعوا ثمَّ تَعُوا، والأبصَارَ لتُبصِروا ثمَّ تتَفكَّروا، والأفئدَةَ لتَفقَهوا وتَعتَبِروا، وتتَعلَّموا شَيئاً فشَيئاً، ولتَشكروا اللهَ ربَّكم على نِعمةِ هذهِ الحَواسِّ وغَيرِها، وتُدرِكوا بها فَضلَهُ عَليكم.

ولذلك قالَ الله تعالى:

{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الذاريات: ٢١].

أي: في ذَواتِكم ما يُدْهِشُ ويَبعَثُ على التَّفكيرِ والاعتِبار، مِن حُسنِ التَّركيبِ والتَّوظيفِ والأدَاء... والرُّوحِ التي أودَعَها اللهُ فيكم، وأسرارِها، وطاقاتِها، وإدراكِها، وتَكوينِكمُ النَّفسيّ، وتَفكيرِكم، وتَذكُّرِكم... أفلا تَنظرونَ فتَتفَكَّرون، وتَعتَبِرونَ فتُؤمِنون؟

××× ××× ×××

دعوةٌ للتفكرِ في بعضِ المخلوقات:

(سورة الغاشية: ١٧-٢١)

{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}:

ألَا يَنظرُ هؤلاءِ المكذِّبونَ بالبَعث، إلى هذهِ الإبِلِ العَظيمَةِ كيفَ خلَقها الله؟ فهيَ قَويَّةٌ شَديدَة، يتَناسَبُ تَركيبُها العَجيبُ معَ بيئتِها ووَظيفَتِها، وتُحمَلُ عليها الأحمَالُ الثَّقيلَة، وتَصبِرُ على الجوعِ والعطَشِ والسَّيرِ أيَّامًا، ويُؤكَلُ لَحمُها، ويُشرَبُ مِن لبَنِها، ويُنتَفَعُ بوبَرِها...

{وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ}:

وإلى السَّماءِ العاليَةِ المحكمَةِ كيفَ رَفعَها اللهُ بدُونِ عمَد، وهم يُشاهِدونَها ليلاً ونَهارًا؟ فمَنِ الذي رفعَها هكذا، ومَنِ الذي بثَّ فيها الكوَاكبَ والنُّجومَ الكثيرَةَ وزيَّنَها للنَّاظِرين، ووضعَ لها نَواميسَ دَقيقَةً ثابتَة...؟

{وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}:

وإلى الجبالِ كيفَ أُرسِيَتْ وأُثبِتَتْ في الأرضِ لئلاّ تَضطرِبَ بأهلِها، وفيها مِنَ المعادِنِ والمنافِعِ الكثيرَةِ التي لا يُستَغنَى عنها؟

{وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}:

وإلى الأرضِ كيفَ بُسِطَتْ وسُوِّيَتْ ومُهِّدَت، ليُمكِنَ العَيشُ عَليها والتَّنَقُّلُ فيها، والاستِفادَةُ منها، وفيها مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ والجَمادِ ما فيها، أفلا يَنظُرونَ إليها ويَتدَبَّرونَ ما فيها وهم يَسيرونَ عَليها؟

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ}:

فذَكِّرِ النَّاسَ وعِظْهم بالكونِ وما فيهِ مِن آيات، وبما أرسلَكَ اللهُ بهِ مِنَ الحقّ، ولا تُلِحَّ عَليهم أيُّها الرسُول، فإنَّ وظيفتَكَ الدَّعوةُ والبَلاغ.

آلاءٌ أخرى متعاقبة:

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [سورة الروم: ٢٢]:

ومِن آياتِهِ الكبيرَةِ الدالَّةِ على كمَالِ قُدرَتِه، خَلقُ السَّماواتِ العَظيمَة، بارتِفاعِها وسَعَتِها، وما فيها مِن كواكِبَ ونجومٍ وأجْرام، تَسيرُ وتَدورُ بموازينَ دَقيقَة، دونَ أنْ يَتصادمَ بَعضُها ببَعض.

وخلقَ الأرضَ وما فيها مِن بِحارٍ ويابِسَة، وجِبالٍ ووُديان، وحيَواناتٍ بأنواعِها البرِّيَّةِ والبَحريَّة، وشجَرٍ وزَرع، ومَعدِنٍ ونِفْط...

ومِن آياتِه اختِلافُ لُغاتِكم، فلكُلِّ قَومٍ لُغَتُه، ولكُلِّ قَبيلَةٍ لَهجَتُها، وهيَ بالآلاف، ولا يَفهمُ قَومٌ مِن قَومٍ إلاّ أنْ يَتعَلَّموا لُغتَهم، أو تُترجَمَ لهم!

ومِن آياتِهِ كذلكَ اختِلافُ ألوانِكم، بينَ أبيضَ وأسوَد، وأحمرَ وأصفَر، وكُلُّكمْ أبناءُ رَجُلٍ واحِد.

وفي ذلكَ كُلِّهِ بَراهينُ على قُدرَةِ اللهِ وكمَالِ إبداعِه، لمن أُوتيَ عِلمًا وفَهمًا وتدَبُّرًا.

يَذكرُ العُلماءُ في هذا العَصرِ أنَّ لكُلِّ شَخصٍ لونُهُ الخاصُّ به، وأنَّ العَينَ البشَريَّةَ تُفَرِّقُ بينَ درَجاتٍ عَديدَةٍ جدًّا مِنَ اللَّونِ الواحِد. ويُلاحَظُ أنَّ الذينَ بَشَرَتُهم سَوداء، أو شَديدَةُ السُّمرَة، يَعيشُونَ في خَطِّ الاستِواء، والمادَّةُ الدَّاكِنَةُ مِن خصائصِها امتِصاصُ الأشِعَّةِ فوقَ البَنَفسَجيَّةِ الضَّارَّة.

والروحُ معجزةٌ كبرى، لا مجالَ لا مجالَ لتدخُّلِ الإنسانِ فيها، وإن كانت داخلَه!

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء: ٨٥].

تفسيرُها: يَسألُكَ المشرِكونَ عن حَقيقَةِ الرُّوح، فقُلْ لهم: هوَ مِن عِلمِ الغَيبِ الذي اختَصَّ اللهُ به، وسِرٌّ من أسرارِهِ الذي أودَعَهُ في بَعضِ كائناتِه، ولم يُطْلِعْكُم على أمرِه، وعِلمُكم مَحدودٌ بالنسبَةِ إلى عِلمِ الله، وما وهبَكم منهُ إلاّ القَليل.

وذكرَ سبحانهُ أنواعًا مما خلقَ تذكيرًا للعباد؛ ليتفكروا بها ويعتبروا، ويتدبَّروا ويؤمنوا، ويَعرفوا قدرةَ خالقِهم وعظمته، فقالَ جلَّتْ قدرتُه:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة: ١٦٤].

بيانها: إنَّ مشاهدَ الخلقِ في الكونِ عظيمةٌ دقيقة، يَنبغي أنْ يُنظرَ فيها بتعمُّقٍ مِن جوانبِها العلميَّةِ والحِكْمية، ليُستدلَّ بها على الخالقِ الأعظم.

فهذهِ السماواتُ بارتفاعِها، وإحكامِ خَلْقِها، وما فيها مِن شُموسٍ وكواكب، وصخورٍ وذرَّات، وجاذبيَّةٍ ودوَران، وبُعدِها عنِ الأرض، أو بعضِها عن بعض، بمسافاتٍ لا تكادُ تُتَخيَّل، كملايينِ السنواتِ الضوئيةِ وما يُقالُ في هذا، عدا ما لم يُكتَشَفْ منها.

والأرضُ في جبالِها ووِهادِها، وبحارِها وأنهارِها، وخِصْبِها وصَحرائها، وإنسِها وجنِّها، وحيواناتِها وجمادِها، ونباتاتِها وأشجارِها، بملايينِ أصنافِها وأنواعِها، الدقيقةِ والعجيبة، وأحيائها المائيةِ في سلوكِها ومعيشتِها، وما فيها مِن منافع، مِن مَعادنَ ولآلئ، وماءٍ وهواء، وكلِّ ما سُخِّر للإنسان.

ومَجيءُ النهارِ يَتلوهُ الليل، ثمَّ يَتلوهُ النهارُ وهكذا، مِن تعاقبِ النورِ والظُّلمَة، باستِمرارٍ ودقَّةٍ مُتناهية.

وهذهِ السفنُ والبواخرُ والأساطيلُ التي تَجري في البَحر، سخَّرَهُ اللهُ للناسِ هكذا ليَنتَفعوا بهِ في أسفارِهم، ونَقلِ بضائعِهم مِن مكانٍ إلى آخر، وليَستَخرِجوا منهُ ما يَنفعُهم مِن مَؤونةٍ ومِيرةٍ وتِجارة.

والمطرُ الذي يَنزلُ منَ السَّحابِ بأمرِ الله، تحيا بهِ زُروعٌ وثِمار، وأناسيُّ وحيَوانات، تُفَجَّرُ بهِ عيون، ويُخَزَّنُ منهُ في الأرضِ للآبار، بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ يابِسةً لا حياةَ فيها.

وما نُشِرَ في الأرضِ مِن كلِّ حيّ، عاقلٍ وغيرِ عاقل، على اختلافِ أشكالِها وألوانِها ومنافعِها، وصِغَرِها وكِبَرِها.

وهذهِ الرياحُ بأنواعِها واتِّجاهاتِها، وما هو منها للرَّحمةِ وما هو منها للعذاب، وما تَجمَعُهُ أو تُفَرِّقهُ منَ السُّحُب، فتقفُ بها في مكانٍ أو تسوقُها إلى حيثُ أمرَها الله، أو ما تَحمِلُهُ مِن حُبوبِ اللِّقاحِ منَ الأشجارِ والنباتاتِ المذكَّرةِ وتَضعهُ على المؤنَّثةِ لتُنتِجَ الثمارَ بإذنِ الله.

وهذهِ الغيومُ المنتَشِرَةُ فوقَ الأرض، في تَشكيلِها وأنواعِها ودلالاتِها، وحركتِها وتسخيرِها وانتقالِها.

كلُّ هذا وغيرهُ حقائقُ عظيمةٌ ودلالاتٌ بيِّنةٌ على وجودِ اللهِ ووَحدانيتِه، وقُدرتِهِ وحكمتِه، هذا إذا تفكَّرَ بها الإنسان، وألقَى عن عقلهِ بَلادةَ الأُلفةِ وغِشاوةَ الغَفلة، ونظرَ في هذهِ المخلوقاتِ بفكرٍ متعمِّقٍ وحِسٍّ مُتَجدِّد، وقلبٍ مُتَطلِّعٍ إلى الحقّ.

وإعجازٌ ظاهرٌ في البحر:

{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ}:

اللهُ الذي أجرَى كِلا البَحرَينِ وأرسلَهما في مَجريَيهما فيَلتَقيان،

{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ}:

وجعلَ بينَهما حاجِزًا مائيًّا يَمنَعُ اختِلاطَ هذا بذاك، فلا يَطغَى ماءُ هذا على ماءِ هذا ولا يَدخلُ فيه. وهذا الحاجِزُ يَكونُ في حالةِ مُروجٍ وذَهابٍ وإياب. ولكلِّ بَحرٍ دَرجَةُ كثافَةٍ مُعيَّنة، ودَرجَةُ مُلوحَةٍ لا تَزيدُ ولا تَنقُص، ولهُ لونٌ لا يَتغيَّر... مثلُ اختِلاطِ ماءِ البَحرِ الأحمَرِ بالمحيطِ الهنديّ، والبَحرِ الأبيَضِ بالبَحرِ الأسوَد، وبالمحيطِ الأطلسيّ (في مَضيقِ جبلِ طارق).

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن: ١٩-٢١]:

فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ يا مَعشرَ الجِنِّ والإنس، وفي اختِلاطِ البَحرَينِ لا يَعتَدي العَذْبُ منهُ على وَظيفَةِ المالح، ولا المالحُ منهُ على المالحِ مِن بَحرٍ آخَر، ولا تَدخلُ أسماكُ هذا في ذَاك. وفي ذلكَ مَنافعُ ومَصالحُ لكم؟

والدوابُّ أنواعٌ وأشكال:

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة النور: ٤٥]:

واللهُ خلقَ كُلَّ دابَّةٍ تَدُبُّ على الأرضِ مِن ماءٍ مَهين، وهوَ النُّطفَة، أي: خلقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن نَوعٍ منَ الماءِ يَختَصُّ بتلكَ الدابَّة. أو خلقَها مِن ماء، بنِسَبٍ مُختَلِفَة، فالماءُ أصلُ الحياة {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [سورة الأنبياء: ٣٠]...

ومِن هذهِ الدوابِّ مَن يَمشي على بَطنِه، كالأفاعي والديدانِ وما شاكلَها منَ الزَّواحِف. ومنهم مَن يَمشي على رِجلَين، كالإنسانِ والطَّير. ومنهم مَن يَمشي على أربَع، كالأنعام.

ويَخلقُ اللهُ ما يَشاءُ، ممّا ذُكِرَ وغَيرِه، واللهُ قادِرٌ على ذلك، لا يُعجِزُهُ شَيء، فيَخلُقُ ما يَشاءُ كما يَشاء.

وخلقَ منَ {الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر: ٦]:

ذَكرًا وأُنثَى، هيَ: الإبِل، والبقَر، والضَّأن، والمعْز.

والحيواناتُ أممٌ مثلُنا، ولكلٍّ صفتهُ وسلوكُه!

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام: ٣٨]:

وما من كائنٍ حيٍّ في الأرض، أو طائرٍ يطيرُ بجناحَيهِ في الجوّ، إلاّ خَلْقٌ وأصنافٌ مُختلِفةٌ أمثالُكم، في أحوالِهم وأرزاقِهم وتَدبيرِهم، ما أغفَلنا ولا تركنا شَيئاً مُهمَلاً، بل كلُّ شيءٍ مُسَجَّلٌ ومحفوظٌ في كتابٍ عندَ الله، هوَ اللَّوحُ المحفوظ. ثمَّ يُحشَرُ الخَلقُ كلُّهم إلى اللهِ يومَ القيامة.

مثالهُ النحلُ وما تُنتجهُ من عسَل:

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٦٨-٦٩]:

ثمَّ كُلِي مِن جَميعِ الثَّمَراتِ وامتَصِّي رَحيقَ الأزهار، واسلُكي الطُّرُقَ التي جعَلَها اللهُ لكِ سَهلةً مُذَلَّلة، منَ التَّجوالِ في البَراري والغَابات، ثمَّ العَودَةِ إلى أماكِنِها، بما فطرَها اللهُ عَليهِ مِن أفانينَ لتَعرِفَ ما تأكُل، وكيفَ تَعود، وكيفَ تَبني خَلاياها المتماثِلَةَ الجَميلَة. يَخرجُ مِن بُطونِها عسَلٌ ذو ألوان: أبيَضُ وأحمَرُ وأصفَرُ وأسوَد، فيهِ شِفاءٌ للنّاسِ مِن أمراضٍ كَثيرة، كما ثبتَ في تجارِبَ طبِّيَّةٍ حَديثَةٍ أيضًا، إضافَةً إلَى ما يَطعَمُونَهُ هكذا أو مُختَلَطًا في مَذاقٍ لَذيذ.

وفي ذلكَ كُلِّهِ آيَةٌ عَظيمَةٌ على قُدرَةِ اللهِ وبَديعِ صُنعِه، وأنَّهُ ليسَ عن مُصادَفَةٍ وطَبيعَة، هذا لِقَومٍ تفَكَّروا وتدَبَّروا، ليَعتَبِروا ويؤمِنوا.

وقالَ الله تعالَى لمن يعتبر:

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة فصلت: ٥٣]:

أي: سنُظهِرُ للإنسانِ مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ العَظيمَة، ومِن خَفايا تَكوينِهم النفسيّ وتَركيبِهمُ العُضويّ، ما يُسَلِّمونَ بهِ أنَّ هذا الدِّينَ حقّ، وأنَّ القُرآنَ كلامُ رَبِّ العالَمينَ المعجِزُ. أوَلا يَكفي أنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ في هذا الكَون، فلا يَغيبُ عنهُ أمر، ولا تَخفَى عليهِ خافيَة، وأنَّهُ يَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُه، صادِقٌ فيما يُخبِرُ عنه؟

المُلك والتصريف والتدبير

قالَ ربُّنا العظيم، مالكُ الملك:

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران: ١٨٩].

بيانها: اعلَموا أنَّ كلَّ شيءٍ ممّا في السَّماواتِ والأرضِ هوَ مُلْكٌ لله، فهوَ المتصرّفُ فيهما كيفَما يَشاء، والقادرُ على ما يَشاء، لا يُعجِزُه شَيءٌ ممّا يُريدُ فيهما، فاخشَوهُ ولا تخالِفوه، واحذَروا نِقمتَهُ وغَضَبَه.

اللهمَّ لكَ المُلْكُ كلُّهُ بلا شَريك، أنتَ وحدَكَ المتصرّفُ فيه، تؤتي فيهِ ما تشاءُ لعبادِك، مُلكاً مُعاراً مُؤقَّتاً، فأنتَ صاحبهُ وتَفعلُ فيهِ ما تُريد، وتَسلبُهُ ممَّن تشاءُ عندَما تشاء، لا أحدَ يَقْدِرُ على أنْ يَمنعَ ويقولَ لا، فأنتَ مالكهُ وصاحبُه.

قالَ ربُّنا جلَّ جلاله: {قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} [سورة آل عمران: ٢٦].

ومِن آياتِكَ العَظيمةِ في الطبيعةِ رَبَّنا، أنْ تجعلَ حركةَ الضياءِ والظُّلمةِ على ما يَراهُ الإنسانُ مِن إعجاز، فتَجعلُ الضياءَ في النهارِ وتقلّلُ منهُ حتَّى يَدخُلَ في ظُلمةِ المساءِ الخفِيفَة، ثمَّ يأتي الظلامُ فتَخِفُّ ظُلمتُهُ شَيئاً فشَيئاً ويَدخلُ في نورِ النهار، وتأخذُ مِن طولِ النهارِ لتَزيدَهُ في قِصَرِ الليلِ حتَّى يَعتدلا، ثمَّ العكس، حتَّى تَكتمِلَ دَورةُ الفصول.

وأنتَ الذي تُخرِجُ الحيَّ منَ الميّت، وتُخرِجُ الميّتَ منَ الحيّ، فتُخرِجُ الحبوبَ منَ الزُّروعِ والزُّروعَ منَ الحبوب، وتُخرِجُ الدجاجةَ منَ البيضةِ والبيضةَ منَ الدجاجة، وتُميتُ أشياءَ لتَكونَ مادَّةً لحياةٍ أخرَى في الإنسانِ والكَون، وهكذا في حركةٍ دائمة، لا يدَّعي أحدٌ أنَّهُ قادرٌ على مثلِها، ولا يَقولُ عاقلٌ إنَّهُ مصادَفةٌ مِن غَيرِ تَدبيرٍ وتَقدير.

وإذا عَرفَ الإنسانُ أنَّ كلَّ ما في الكونِ مُلْكٌ لله، وأنَّ ما يَجري فيهِ مِن عِزٍّ وذُلٍّ، وحياةٍ ومَوت، بمشِيئتِهِ وتَقديرِه، فليَعلمْ أنَّهُ هوَ وحدَهُ الذي يَرزُقُ مَن يَشاءُ بما يَشاء، فلا أحدَ يَستطيعُ أنْ يمنعَ نِعَمَهُ مِن أحَد، ولا أنْ يُعطيَ مَن يَمنعُه، فهوَ صاحبُ المشيئةِ والإرادة، وهوَ العادلُ الذي لا يَظلِم.

مصداقهُ قولهُ تعالَى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة آل عمران: ٢٧].

ومن عظمتهِ سُبحانه تدبيرهُ الكون، وتصريفهُ الأمورَ بسهولة، فبيدهِ كلُّ شيء:
قال جلَّ جلاله:
{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [سورة البقرة: ١١٥]:
فالأرضُ كلُّها لله، شَرقُها وغَربُها، لا يَختَصُّ بمُلكِها والتصرُّفِ فيها إلا هو سُبحانَه.

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [سورة السجدة: ٥]:
الذي يُدَبِّرُ أمرَ الدُّنيا وشُؤونَها، ويَتنَزَّلُ أمرُهُ وقَضاؤهُ مِن أعلَى السَّماواتِ إلى أدنَى الأرَضِين، ثمَّ يَصعَدُ الأمرُ إليهِ بعدَ تَدبيرِه، في يَومٍ قَدْرُهُ مَسيرَةُ ألفِ سنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَهُ في الدُّنيا.
{ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة السجدة: ٦]:
ذلكَ هوَ اللهُ العَظيم، الذي يَعلَمُ ما غابَ عنِ البشَرِ عِلمُهُ ورُؤيَتُه، جَليلَهُ وحَقيرَه، كما أحاطَ عِلمُهُ بجَميعِ ما هوَ مُشاهَد. وهوَ العَزيزُ الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه، الرَّحيمُ بعِبادِهِ في تَدبيرِهِ شُؤونَهم.

وفي آيةٍ أخرى:
{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [سورة المعارج: ٤].
أي: تَصعَدُ إليهِ الملائكة، وجبريلُ – إشارَةً إلى فَضلِهِ مِن بينِهم عليهِ السَّلام – في يَومٍ كانَ زمَنُهُ خَمسينَ ألفَ سنَةٍ ممَّا تَعُدُّون. وقيل: المقصودُ بالعُروج: الصُّعودُ إلى عَرشِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى. ومُعظَمُ السَّلَفِ يَعُدُّونَ ذلكَ مِنَ المتشابِه... فاللهُ أعلَم.

والله عَظيم، لا يُتعِبهُ عملٌ مهما كان كبيرًا.
يقولُ جلَّ جلاله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ} [سورة البقرة: ٢٥٥].

أي: لا يُتْعِبُهُ حِفظُ ما فيهما ولا يُثْقِلُهُ شيءٌ مِن ذلك، ولا ما بينَهما، بل هوَ سهلٌ عليهِ يَسير، فهوَ الرقِيبُ على جميعِ الكائنات، لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ مِن حركاتِها، والأشياءُ كلُّها صَغيرةٌ ومَتواضِعَةٌ بالنسبةِ إلى قُدرتهِ وعظَمَتِه، وهيَ جميعاً مُحتاجَةٌ إلى حِفظهِ وتَدبيرِه.

وهوَ المتَفرِّدُ بالعلوِّ والعظَمة، والجلالِ والجبَروت، الرفيعُ فوقَ خَلْقِه، المتعالي عنِ الأشياءِ والأمثال، الكبيرُ الذي لا شيءَ أعظمُ منه.

ومهما عَلا إنسانٌ فلا يتجاوزُ مقامَ العبوديةِ للهِ العَظيم!

ومثلهُ في هذهِ الآية، مع تنبيهٍ لمن تذكَّرَ واعتبر:

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف: ٣٣].

معناها: ألمْ يَعلَمِ المنكِرونَ للبَعثِ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرضَ ومَن فيها، ولم يَتعَبْ مِن خَلقِهنَّ، ولا عَجَزَ عن إبداعِهنَّ، قادِرٌ على إحياءِ الموتَى مِن قُبورِهم؟ بلَى هوَ قادِرٌ على ذلك، وقادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ يُريدُه.

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ} [سورة فاطر: ٤١]:

اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَحفَظُ السَّماواتِ والأرضَ حتَّى لا تَضطَرِبا ويَنفَرِطَ نِظامُهما فيَضمَحِلاّ، وإذا اختلَّ نِظامُهما وأشرَفَتا على الزَّوال، فلا يَقدِرُ على حِفظِهما وإبقائهمَا سِواه.

وفي عهدِ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السلامُ كان هناك ملِكٌ متكبِّرٌ متعنِّت، أعطاهُ اللهُ منَ المالِ ما أعطَاه، ثمَّ جاءَ يُجادلُ النبيَّ إبراهيمَ ويُخاصِمهُ في ربِّه، وذلكَ لما رأى نفسَهُ مختصّاً بمالٍ ومُلكٍ ليسَ عندَ غيرِه، ويأمرُ وينهَى كما يشاءُ فيُسمَعُ ويُطاع، فقالَ لهُ إبراهيمُ عليهِ السلام، لِيُرِيَهُ حَقيقَةَ نفسهِ وضَعْفَ قوَّتهِ وإرادتهِ أمامَ ربِّهِ الخالق: إنَّ اللهَ يُحْيي ويُمِيتُ، وإنَّ ما يُرَى مِن ذلكَ في عالمِ الإنسانِ والحيوانِ دليلٌ على وجودِه، وعلى تَصريفهِ للكونِ وتَدبيرِهِ لما يَجري فيهِ وحدَه، فهي لا تَحْدُثُ بنفسِها، بل لا بدَّ لها مِن مُوجدٍ ومِن مدبِّر، وهوَ الذي يَسلُبُ حياةَ مَن شاءَ متَى شاء، بأسبابٍ ظاهرةٍ أو باطِنة، معروفةٍ أو غيرِ معروفة.

واغترَّ هذا المِلكُ المتكبّرُ بما يَملِكُ مِنْ قُوىً بشَريَّةٍ وسَيطرة، فتمادَى في غَيِّهِ وقالَ لإبراهيم: أنا أيضاً أُحيي وأميت!

ذكرَ غيرُ واحدٍ أنَّهُ أوتيَ برَجُلَينِ استحقّا القَتل، فأمرَ بقَتلِ أحدِهما وعفَا عنِ الآخَر، فذكرَ أنَّهُ أماتَ الأوَّلَ وأحيَا الآخَر، فكانَ هذا مفهومَ الإحياءِ والإماتةِ عندَه!

ولم يُرِدْ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أنْ يُطيلَ معَهُ الجِدالَ وهوَ بهذهِ العقليَّةِ المتكبّرةِ المنكَرة، فأرادَ أنْ يُفهِمَهُ أنَّ الإلهَ المقصودَ بعبادتهِ هوَ المتصرّفُ في الكونِ كلِّه، وأنَّ هذهِ القوانينَ الكونيَّةَ الموجودةَ هي من صُنعهِ وتَدبيرِه، وطلبَ منهُ تغييرَ قانونٍ واحدٍ مِن هذهِ القوانينِ الكثيرةِ المبثوثةِ في الكون، بما أنَّهُ يدَّعي أنَّهُ هوَ الآخَرُ فيه صفةُ الربوبية، وقالَ له: إنَّ اللهَ جعلَ الشمسَ تُشرقُ منَ الشرق، فَأْمُرْها أنتَ لتُشرِقَ منَ الغرب!

فتحيَّرَ ذلكَ المِلكُ وسكت، وعَجَزَ عنِ الكلام، وصُدِمَ بهذهِ الحُجَّةِ الدامغةِ التي لم تَدَعْ لهُ مَنطِقاً يُدافعُ بهِ عن نفسِه. لكنَّهُ لم يُسَلِّم بالأمرِ ولم يؤمن، لأنَّهُ لم يرغبْ في الحقّ، ولم يَتلمَّسْ طريقَ الهِداية. واللهُ لا يَهدي هؤلاءِ الذينَ يَظلِمونَ أنفسَهم، فيَختارونَ طريقَ الضلالِ والعِناد، على الرَّغمِ من وضوحِ الحُجَّةِ ضدَّهم.

قالَ الله تعالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ٢٥٨].

ومن آياتهِ سُبحانهُ في التصريفِ والتدبير:

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الزمر: ٤٢].

معناها: اللهُ سُبحانَهُ يَقبِضُ الأنفُسَ إليهِ عندَ مَوتِها، بأنْ يَقطعَ عَلاقتَها بالأبدَان، وكذلكَ عندَ مَنامِها، فيُمسِكُ التي قضَى بمَوتِها ولا يُردُّها إلى أبدانِها، ويَتركُ الأخرَى – النَّائمَةَ التي لم يُقَدِّرْ عليها الموتَ – لتَعودَ إلى أبدانِها عندَما تَستَيقِظ، حتَّى تَستَوفيَ رِزقَها وأجلَها وتَموت. وفي النَّوم، وإمساكِ الأنفُسِ وإرسالِها، عَلاماتٌ وأدِلَّةٌ على قُدرَةِ اللهِ واستِقلالِهِ بالتصَرُّفِ في شُؤونِ خَلقِه.

إشارةٌ أخرى، مع تنبيهٍ وتحذير:

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} [سورة الفتح: ٧].

بيانُها: ولله كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرضِ مِن جُنود، وهوَ القادِرُ على الانتِقامِ بهم ممَّن يَشاء، وهوَ القَويُّ الذي لا يُغالَب، ولهُ الحِكمَةُ في فِعلِ ما يَشاء.

فالإحياءُ والإماتةُ مِن صفاتِ هذا الإلهِ الذي لا يَكونُ أحدٌ مثلَه، ولا يَستطيعُ أحدٌ أن يَقومَ بما يقومُ هوَ به، وهوَ الذي أعبدهُ وأدعوكَ وأدعو الناسَ إلى الاستسلامِ لهُ وعبادتِه، فهوَ الخالق، والمحيي والمِميت، الذي بيدهِ كلُّ شَيءٍ في هذا الكون، فلا إلهَ إلا هو، ولا عبادةَ إلاّ له.

العظمة في الأمر والحُكم

وتتجلَّى عظمتهُ سُبحانهُ وتعالَى للعباد، عندما أمرَ طوفانَ نوحٍ أن يتوقَّف، فقال:

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة هود: ٤٤]:

قالَ اللهُ للأرض: ابلَعي ما على وَجهِكِ مِن ماءِ الطُّوفان، وأنتِ يا سَماءُ أمسِكي عن إرسالِ المطَر. وبدأ الماءُ يَنقُصُ حتَّى غارَ مِن سَطحِها ونَضَب. وأُنْجِزَ ما وعدَ اللهُ بهِ مِن إهلاكِ الكافِرينَ وإنجاءِ المؤمِنين، ولم يَبقَ كافِرٌ على وَجهِ الأرض. واستَقرَّتِ السَّفينةُ على جَبلِ الجُودِيّ، وهوَ في ولايةِ شِرْناق مِن أرضِ تُركيا، وقيلَ هَلاكًا وخَسارًا للكافِرينَ الظالِمين.

واللهُ هو الذي أمرَ بإفاضةِ الماءِ ليكونَ طوفانًا:

{فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [سورة القمر: ١١-١٢].

أي: أمَرنا السَّماءَ بأنْ يَتدَفَّقَ منها المطَرُ ويَنصَبَّ انصِبابًا شَديدًا.

وفجَّرنا يَنابيعَ الأرضِ كُلَّها، فالتقَى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرض، على أمرٍ قدَّرَهُ الله.

××× ××× ×××

ونزولُ القرآنِ رحمةٌ للناس، وفيه أوامرُ الربّ:

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً} [سورة الإسراء: ٨٢].

معناها: نُنَزِّلُ منَ القُرآنِ ما يَكونُ شِفاءً وعِلاجًا لأمراضِ النَّفسِ والقَلب، مِن ضلالَةٍ وجَهالَة، ووَسوَسَةٍ وشَكّ، وزَيغٍ وقَلَق، وهَوًى وطمَع، وانحِرافٍ وزَلَل، فيُسَكِّنُ النَّفس، ويُطَمْئنُ القَلب. وهوَ رَحمَة، ففيهِ الإيمانُ الصَّحيح، والدَّليلُ إلى الحَقّ، والثَّباتُ عَليه، والرَّغبَةُ في الخَيرِ والعمَلِ الصَّالِح، والتَّمهيدُ إلى رِضَى اللهِ ودُخولِ جَنَّتِه.

وهذا كُلُّهُ للمُؤمِنينَ بالقُرآن، المتَّبِعينَ لهَديه، الذينَ جَعلوهُ دُستورًا لهم، يَتحاكَمونَ إليه، ويَجتَمِعونَ عَليه.

أمَّا الكافِرونَ به، فليسَ القُرآنُ شِفاءً لهم ولا رَحمَة، فهم يَكفُرونَ بمُنزِله، ويُكَذِّبونَ المنزَلَ عَليه، فيَزدادونَ ضَلالًا، وظُلمًا وفَسادًا، لبُعدِهم عنهُ ومُناقضَتِهم لأحكامِه، فهم خائبونَ خاسِرون.

ويقولُ الله تعالَى في نبيّهِ محمدٍ ﷺ ورسالته:
{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: ١٠٧].
أي: ما أرسَلناكَ إلاّ رَحمَةً للنَّاسِ كُلِّهم، بما أُرسِلْتَ بهِ مِن شَريعَةٍ عامَّة، فيها العَقيدَةُ الصَّحيحَة، والأحكامُ العادِلَة، والدَّعوَةُ إلى السُّلوكِ المستَقيم، التي تؤدِّي إلى السَّعادَةِ والأمانِ في الدَّارَين.

وفي سورةِ يوسُف:
{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [سورة يوسف: ٦٧].
أي: ما الحُكمُ المطلَقُ إلاّ للهِ تعالَى، لا يُشارِكُهُ فيهِ أحَد، ولا يُمانِعُهُ منهُ قُوَّة، وعَليهِ وحدَهُ يَعتَمِدُ مَن أرادَ التوكُّلَ عليهِ مِنَ المؤمِنين.

وقالَ سُبحانه:
{وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف: ٢١].
معناه: اللهُ يَفعَلُ ما يُريد، ولا يُرَدُّ أمرُه، ولا يُمانَع، ولا يُخالَف، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ لَطائفَ صُنعِه، وخَفايا فَضلِه، وحِكمتَهُ في خَلْقِه.

{وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} [سورة الرعد: ١١]:
وإذا أرادَ اللهُ أنْ يَبتَليَ قَومًا بمَرَضٍ أو فَقرٍ أو هَزيمة، أو غَيرِ ذلك من أنواعِ البَلاء، فلا أحدَ يَقدِرُ على رَدِّ أمرِه، ولن يَكونَ لهم وليٌّ ولا ناصِرٌ يَدفَعُ عنهم ما يُصيبُهم.

ومن أوامرِ الله تعالَى التي يبدو فيها عظمتهُ سُبحانه:
{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ} [سورة آل عمران: ١٨٥].
أمرٌ شاملٌ عظيمٌ مخيف، فإنَّ كلَّ نفسٍ مَيّتةٌ لا مَحالة.

وكلُّ ما في الكونِ منقادٌ لأمره:

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت: ١١].

أي أنَّ اللهَ تعالَى قالَ للسماءِ والأرض: افعَلا ما آمرُكما، واستَجيبا لِما أقولُ لكما طَواعيَةً، وإلاّ أتَيتُما كَرْهًا، قالَتا: أَتَيناكَ يا رَبَّنا مُطيعَينِ مُنقادَين.

وكما قالَ سُبحانه:

{وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [سورة الرعد: ١٥].

معناها: ولله وحدَهُ يَخضَعُ ويَنقادُ كُلُّ مَن في السَّماواتِ والأرض، طواعِيةً منهم إنْ أرادوا، وإكراهًا إنْ لم يُريدوا، فحُكمُ اللهِ في الإحياءِ والإماتَةِ وما إليهِ حَادِثٌ فيهم، شَاؤوا أم أبَوا. كما تَنقادُ لهُ سُبحانَهُ ظِلالُهم تَبَعًا لشُخوصِهم، صَباحَ مَساء، على الدَّوام. فإذا الكَونُ كلُّهُ خاضِعٌ لهُ ساجِد، أصلاً وظِلاً.

××× ××× ×××

وتَشريعُ دينٍ عالميٍّ كامل، والأمرُ بأحكامٍ شاملةٍ للبشر، بأجناسِهم وثقافاتِهم وبيئاتِهم المختلِفة، وفي جميعِ العصورِ والأمكنة، لا يقدرُ عليه إلا الربُّ العظيم، بحكمته، وشمولِ علمهِ بنفوسِ عبادهِ وطبائعهم، وما يناسبُهم من الأحكام، سبحانهُ وتعالَى.

قالَ جلَّ شأنه: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [سورة البقرة: ١٠٧].

معناها: ألم تعلمْ أيُّها النبيُّ أنَّ اللهَ هو المتَصرِّفُ في خَلقهِ كما يشاءُ دونَ غَيرِه، فله وحدَهُ الأمرُ والنهي، ويَنسَخُ ويُبَدِّلُ، ويُغيِّرُ ويُقِرُّ مِنَ الأحكامِ لعبادهِ ما يشاء، فهوَ أعلمُ بهم وبما يُصلِحُهُم وَيُصلِحُ أحوالَهم، وما عَليهم إلاّ السمعُ والطاعةُ في تَنفيذِ ما أَمَر، والكفُّ عَمَّا نَهَى. وَلَيسَ

للمؤمنينَ وَلِيٌّ يُقَوّيهِم ويَهديهم، ولا نصيرٌ يؤيّدُهم وينصرُهم إلاّ الله، فكونوا على حذرٍ مِن تَشكيكِ أعدائكم، واحذَروا أَضَالِيلَهُم وخُدَعَهُم.

وفي يومِ عَرَفةَ مِن حِجَّةِ الوَداعِ نَزلتْ هذهِ الآيةُ الكريمة: {اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا} [سورة المائدة: ٣].
تفسيرُها: اليومَ أكمَلتُ لكم دينَ الإسلام، فلا تَحتاجونَ إلى دِينٍ ولا مَذهبٍ سِواه، ولا تَحتاجونَ إلى نبيٍّ بعدَ نبيّكمْ محمَّدٍ ﷺ، فهوَ خاتمُ الأنبياء، ودينُكم آخِرُ الأديان، وناسخٌ لِما سبقَهُ منها، فلا يؤخَذُ حُكمٌ إلاّ منه.
والمقصودُ بالإكمال: إكمالُ الكُلِّيات، التي منها الأمرُ بالاستِنباطِ والقياس. وقد جمعَ القرآنُ جميعَ الأحكامِ جمعاً كلّياً في الغالِب، وجُزئيًّا في المهمّ.
وأتمَمْتُ عليكمْ نِعمتي بذلك، وأنجزتُ لكمْ وَعدي، بقولي: {وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٠].
واختَرتُ لكمُ الإسلامَ – أيُّها المسلِمونَ – دونَ الأديان، ورَضِيتُهُ لكم، فأقبِلوا عليهِ وتَمسَّكوا به، فإنَّهُ الحقُّ مِن ربِّكم، وفيهِ سَعادتُكم، وعِزُّكم ونَصرُكم، وهوَ ذُخرُكم يومَ الدِّين.

وقالَ سُبحانهُ في هذا:
{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الأنعام: ١١٥].
معناها: تمَّ كلامُ ربِّكَ صِدْقاً في كلِّ ما قالَ وقرَّر، وعَدْلاً في كلِّ ما شَرَعَ وحَكَم، فكلُّ ذلكَ حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، فلا يأمرُ سُبحانَهُ إلاّ بخَير، ولا يَنهَى إلاّ عن شَرّ، ولا رادَّ لقِضائه، ولا مُغيِّرَ لحُكمه، ولا خُلْفَ لوعدِه، ولا أحدَ يَقدِرُ على تَبديلِ شَيءٍ من كلماتهِ إلى ما هوَ أفضَل. وهوَ السَّميعُ لِما يَقولُ عِبادهُ في ذلك، العليمُ بأحوالِهم وما يُسِرُّونَهُ وما يُعلِنونَه، وما يُصلِحُهم.

ومن عظمةِ التشريعِ في الإسلامِ قولهُ تعالَى:
{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: ٣٢].

بيانُها: قلْ أيُّها الرسُولُ للمُشرِكين، وقد حرَّموا ما أحلَّ الله: مَن حرَّمَ الزّينةَ التي خلقَها اللهُ لعِبادهِ منَ اللّباسِ وكلِّ ما يُتَجمَّلُ به، ومَن حرَّمَ ما طابَ واستلذَّ منَ المآكلِ والمشارِب؟ قلْ هيَ مخلوقةٌ للمؤمِنينَ لكرامَتِهم على الله، ويشارِكُهم فيها الكفّار، وهيَ خالصةٌ للمؤمِنينَ يومَ القيامَة، لا يشاركهم فيها مَن كفرَ وأشرَك.

وهكذا نبيّنُ هذهِ الأحكامَ لمن يَعقِلُ فيَعلَم، ويتدبَّرُ فيَفقَه، ويتَّعِظُ فيَعمَل.

ثمَّ قالَ جلَّ جلالُه:

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}:

قلْ أيُّها النبيّ: إنَّما حرَّمَ اللهُ ما تَفاحشَ عملهُ واستُنكِر، ممّا ظهرَ منهُ أو خَفِي، وسائرَ الذُّنوبِ والمعاصي التي توجِبُ الإثمَ، وحرَّمَ التعدّيَ على الناسِ بغَيرِ وجهِ حقّ، وأنْ تَجعلوا للهِ شَريكاً في عبادتهِ ممّا لم يُنزِلْ بهِ حُجَّةً وبُرهاناً، وأنْ تَكذِبوا على الله، فتحرّموا أشياءَ وتُسنِدوها إليهِ وهي حَلال، أو العكس، ولا علمَ لكم بذلكَ أصلاً.

ومن جوانبِ الحُكمِ في الإسلام، التي تتردَّدُ الأنظمةُ الحديثةُ في تطبيقِها، بل يرفضُها معظمُها، قولهُ سُبحانهُ وتعالَى في حدِّ القاتل:

{وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٧٩].

فإنَّ القَتلَ أوفَى للقَتل، وأوقَفَ لسفكِ الدماء، وإذا قُتِلَ القاتلُ سكنتِ الفِتنة، وإلّا زادتْ وسقطَ أكثرُ مِن قتيل، معَ استحكامِ العداوةِ والبَغضاءِ بينَ الفريقين، وربَّما الأهلِ والأرحام.

ففي قتلِ القاتلِ حياة، ولو بدا في صورتهِ قَتلاً، لأنَّهُ حُكمٌ عَدْلٌ باستيفاءِ حقٍّ مِن سفكِ دمٍ بَريء؛ هذا لمن تدبَّرَ وكانَ منَ العقلاء، وإنَّما شُرِعَ القِصاصُ لتَبتَعِدوا منَ القَتل، فلا تَقتُلوا حتَّى لا تُقتَلوا.

وكذلك تشريعُ الجهاد، فإنهُ لولاهُ لما انتصرتْ أمةُ الإسلام، ولما فُتحتِ البلادُ وانتشرَ الإسلام، ولما سادَ المسلمونَ وصاروا قادةَ الدنيا، فهذا من عظمةِ الدين، وعظمةِ تشريعه. قال ربُّنا سبحانهُ وتعالى:

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢١٦].

بيانُها: فَرَضَ اللهُ عَليكمُ الجِهادَ وهوَ شاقٌّ عليكم، تَكرهُهُ النفوسُ وتَستَثقِلُه، ولكنْ رُبَّما كَرِهتُم شيئاً وفيهِ خيرٌ لكم، فإنَّ نتيجتَهُ -إنْ شاءَ اللهُ- النصرُ على الأعداءِ وفتحُ بلادِ الكفرِ ورفعُ رايةِ الإسلام، أو الشهادةُ التي يَدخلُ بها المرءُ الجنَّة. وعسَى أنْ تحبُّوا شَيئاً وفيهِ شرٌّ لكم، فإنَّ القُعودَ عن الجهادِ والركونَ إلى الكسلِ والرفاهيةِ يُعطي نتيجةً عَكسيَّة، فيَستولي الأعداءُ على البلاد، ويَنهزمُ المسلِمون، ويَتحكَّمُ الكفّارُ في شؤونِهم.

فالجهادُ سَببٌ لحصولِ النصرِ والأمن.

واللهُ أعلمُ منكم بمآلِ الأمور، وأخبَرُ بما فيهِ صلاحُكم في دنياكم وآخِرَتِكم، فالتزِموا جانبَ الجهادِ والقُوَّة. وقد قالَ رسولُ الله ﷺ كما في صحيحِ مسلم: "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ بهِ نفسَهُ، ماتَ على شُعْبةٍ مِن نِفاق".

وقالَ الله مخاطبًا عبادَهُ المؤمنين للالتزامِ بما شرعَهُ لهم من هذا الدِّينِ العَظيم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [سورة البقرة: ٢٠٨].

أي: خُذوا بجميعِ عُرَى الإسلامِ وشَرائعهِ وشُعَبِ إيمانِه، والتزمُوا بجميعِ أوامرهِ وأحكامِه، وانتَهوا عن جميعِ زَواجرِه، واجتَنِبوا ما يأمرُكم بهِ الشَّيطان، فإنَّهُ عدوٌّ ظاهرٌ لكم، لا يأمرُكم إلاّ بالسوءِ والفَحشاءِ لتَكونوا مِن أصحابِ النَّار.

العظمة في التحدي والإعجاز

ومن رحمةِ الجليلِ أن يخاطبَ البشرَ بما يفهمون، ومن عظمتهِ أن يتحدَّاهم بما لا يَستَطيعونه، حتى يعلموا أن الأمورَ بيده، وأن ما يقولهُ حقّ.

وذلك مثلُ الإعجازِ الذي يزوِّدُ به أنبياءَهُ تصديقًا لنبوَّتهم، وتأييدً لما أُرسلوا به.

فهذا القرآنُ الذي هو آخِرُ المعجِزات، ولكلِّ العصورِ القادمة، أُيِّدَ به رسولُ الله محمدٌ ﷺ، لإثباتِ أنه رسول، بل آخِرُ الرسلِ وخاتَمُهم، وتحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ من مثلِ سُوَرِ القرآن، ولو كانت قصيرةً لا تتجاوزُ السطرَ الواحد، مثلَ سورةِ الكوثر! على الرغم من أنه مكوَّنٌ من حروفٍ عربيةٍ معروفةٍ لهم، وبينهم فصحاءُ بُلَغاء. فإذا لم يَقدروا على ذلك، فليعلَموا أنه من عندِ الله، وليسَ من عندِ البشر.

قالَ سبحانهُ وتعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة البقرة: ٢٣].

أي: استعينوا بمن شِئتُم مِن أعوانِكم في ذلك، إذا كنتُم صادقينَ في أنَّ القرآنَ مِن عندِ غيرِ الله.

وبيَّنَ في الآيةِ التي بعدها أنهم لن يَقدروا على الصمُودِ أمامَ هذا التحدّي مهما حاوَلوا:

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}.

أي: إذا لم تَقْدِرُوا على الإتيانِ بسورةٍ من القرآن، ولن تَقدِرُوا عليه، فاعلَموا أنَّهُ كلامُ اللهِ المعجِزُ الحقُّ، واعلَموا أنَّ وراءَ إنكارِ الحقِّ نارًا عظيمةً مُحرِقةً، تُضْرَمُ مِن أجسادِ الكفرةِ الظالمين، ومِن الحجارةِ الصُّلْبَةِ الضَّخمةِ الشديدةِ الاشتِعال، أُرصِدتْ لمنْ كانَ على مِثْلِ ما أنتم عليه مِن الكفرِ باللهِ ورسولِه.

وقالَ الله تعالَى في سورةٍ أخرى:

{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} [سورة الإسراء: ٨٨].

تفسيرُها: لو أنَّ الإنسَ والجِنَّ كُلَّهمُ اجتَمَعوا وتَعاوَنوا على أنْ يأتوا بمِثلِ هذا القُرآنِ لَما قَدَروا على ذلك، ولو بذَلوا كُلَّ ما في وسْعِهم من عِلمٍ وإبداعٍ ومَوهِبَةٍ ومَهارَة، فهوَ كلامُ اللهِ المعجِزُ

المحكَم، لا يَقدِرُ مَخلوقٌ على أنْ يأتيَ بمِثلِه، ولا بعَشرِ آياتٍ منه، ولا بسورةٍ قَصيرَةٍ منهُ لا تتَجاوزُ الثَّلاثَ آيات. ولو كانَ من كلامِ الخَلقِ لأتَوا بمِثلِه.

إنهُ كتابُ الله المعجِز، من تدبَّرَهُ بحقٍّ آمنَ وسلَّم:

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [سورة النساء: ٨٢]:

أفلا يَتأمَّلونَ ويَتمعَّنونَ في القُرآنِ الكريمِ وكلِماتِه، ومَعانيهِ ومُعجِزاتِه، وكيفَ أنَّهُ مُحْكَمٌ بَليغ، لا اختلافَ فيهِ ولا مُعارَضة، بل يُصَدِّقُ بَعضُهُ بَعضاً، ذلكَ أنَّهُ مُنْزَلٌ مِن عندِ اللهِ الواحدِ الحقّ، ولو كانَ مِن عندِ غيرِهِ لوجَدوا فيهِ مُخالفةً ومُعارَضةً بينَ آياتهِ ومَعانِيها، ففيهِ منَ الإخبارِ بالغيب، وما يُسِرُّهُ المنافقونَ، وتاريخُ أهلُ الكتابِ الكثير..

ومن معجزاتِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ انشقاقُ القمَر!

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [سورة القمر: ١].

بيانُها: دَنا يَومُ القِيامَةِ وانشقَّ القمَرُ فِلقتَين. فانشِقاقُ القمَرِ مِن عَلاماتِ السَّاعَة.

في صَحيحِ البخاريّ وغَيرِه، أنَّ أهلَ مكَّةَ سألوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يُرِيَهم آيَة، فأراهمُ القمرَ شِقَّتَين، حتَّى رأَوا حِرَاءَ بينَهما.

وعندَما رأى المشرِكونَ ذلكَ قالوا: سحَرَنا محمَّد! فقالَ بَعضُهم: لئن كانَ سحرَنا ما يَستَطيعُ أنْ يَسحرَ النَّاسَ كُلَّهم. وقد روَى هذا الترمِذيُّ بإسنادٍ صَحيح.

وذكرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ أحاديثَ انشِقاقِ القمَرِ مُتواتِرَةٌ بأسانيدَ صَحيحَة.

وقد كُشِفَ عن مَخطوطاتٍ وكتاباتٍ تاريخيَّةٍ قَديمَةٍ تؤرِّخُ لهذهِ المعجِزَةِ في غَيرِ بِلادِ المسلِمين.

والذينَ صعَدوا إلى القمَرِ رأوا آثارَ هذا الانشِقاقَ فيه، وقالوا إنَّهُ انشَقَّ منذُ زمَنٍ قَديمٍ إلى قِسمَينِ مُنفَصِلَينِ ثمَّ التَحَما، بدَليلِ وجودِ شُقوقٍ صَخريَّةٍ مُتعَرِّجَةٍ وطَويلَةٍ تُمَزِّقُ القمرَ مِن سَطحِهِ إلى جَوفِه. وقد وُضِعَتْ أجهِزَةٌ خاصَّةٌ بالرَّصدِ الزِّلزاليّ للتَّأكُّدِ مِن ذلك...

××× ××× ×××

وأنْ يعمَّرَ الإنسانُ ألفَ عامٍ ليس معهودًا، ولا يكونُ إلا بإذنٍ من قادرٍ عظيم، بيدهِ أعمارُ الناسِ وأرزاقُهم.

وهذا نبيُّ الله نوحٌ بقيَ داعيًا قومَهُ مدةً طويلةً جدًّا!

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [سورة العنكبوت: ١٤].

بيانُها: أرسَلنا نُوحًا إلى قَومِهِ ليَدعُوهم إلى دِينِ الله، فمكثَ فيهم تِسعَمِئةٍ وخَمسينَ عامًا لأجلِ ذلك، فأعرَضوا عَنهُ وكذَّبوه، فعاقبَهمُ اللهُ بالطُّوفانِ وأغرَقَهم جَميعًا، وكَانوا مُصرّينَ على كُفرِهم وضَلالِهم.

ومن المعجزاتِ الباهرةِ التي أوتيَها نبيُّ الله موسى عليه الصلاةُ والسلام: انفجارُ (١٢) عينًا من حجرٍ بضربةٍ من عصَاه:

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [سورة البقرة: ٦٠].

تفسيرُها: اذكروا يا بني إسرائيلَ مِن نِعَمي عَليكم، عندما استُجيبَ دعاءُ نبيِّكم موسى، لما طَلَبَ السُّقيا لكم، فأمرناهُ أنْ يَضرِبَ حَجراً بعَصاه، فضربَهُ، فانفجرَتْ منهُ اثنَتا عشرةَ عَيناً، لكلِّ قَبيلةٍ مِن قبائلكم عَينٌ قد عرَفتها. فكُلُوا المنَّ والسَّلوى، واشرَبوا مِن هذا الماءِ المعين، الذي جاءَكم بدونِ كدٍّ ولا تَعب...

وعصاهُ التي تحوَّلتْ إلى حيَّةٍ عظيمة، وابتلعتْ كلَّ ما صنعَهُ سحَرةُ فرعونَ من سحرٍ وتمويه، فما كان أمامَهم سوَى الاستسلامِ والإيمان!

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [سورة طه: ٧٠]:

وألقَى موسَى عَصاه، وحدَثَتِ المعجِزَةُ الكبيرَة، فقَدِ ابتَلعَتْ عَصاهُ كُلَّ ما صنَعوا مِن سِحر، وعَلِمَ السَّحرَةُ أنَّ هذا شَيءٌ آخَرُ غَيرُ فَنِّهمُ الذي يَعرِفونَهُ جَيِّدًا، ولم يَملِكوا سِوَى الاعتِرافِ بهذهِ الآيَةِ العَظيمَة، فخَرُّوا سُجَّدًا لله، مُؤمِنينَ بهِ تائبينَ إليه، وقالوا في خُشوعٍ ورَهبَةٍ سكنَتْ قُلوبَهم: آمَنَّا برَبِّ هارونَ وموسَى، وكفَرنا بربُوبيَّةِ فِرعون.

ويدهُ المنوَّرةُ عليه الصلاةُ والسلام:

{وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [سورة الشعراء: ٣٣]:

ونزَعَ موسَى يدَهُ مِن أعلى فَتحَةِ قَميصِه، فإذا بها بَيضاءُ تَشِعُّ نُورًا، لمن يَنظُرُ إليها.

وانفلاقُ البحر:

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [سورة الشعراء: ٦٣]:

فأمَرنا موسَى بوَحي مِن عندِنا، أنِ اضرِبِ البَحرَ بعَصاك. فضرَبهُ بها، فانشَقَّ البَحر، فكانَ كُلُّ جانبٍ منهُ كالجَبَلِ الكَبير.

وغرقَ فيه فرعونُ ومن معه، لم ينجُ منهم أحد!

ومعجزةٌ لسليمانَ لم يؤتَها غيرُه:

{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} [سورة الأنبياء: ٨١]:

وسخَّرنا الرِّيحَ للنَّبيِّ سُلَيمان، فكانَ يَقطَعُ بها المسَافاتِ البَعيدَةَ في وقتٍ يَسيرٍ كالعَاصِفَة، وتَجري بأمرِهِ وتأخذُهُ إلى أرضِ الشَّامِ المبارَكة، وكُنّا عالِمينَ بكُلِّ شَيءٍ مِن ذلك، ممّا يَلزَمُهُ وما يَؤولُ إليهِ أمرُه.

{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٢]:

وسخَّرنا لهُ مِنَ الشَّياطينِ مَن يَغوصُونَ لهُ في البِحارِ ويَستَخرِجونَ لهُ اللَّآلئَ والجَواهِرَ وغيرَ ذلكَ مِنَ النَّفائس، ويَعمَلونَ لهُ صَنائعَ كثيرَةً غَيرَ الغَوص، منَ الأمورِ الغَريبَةِ والعَجيبَة، وكُنَّا نَحفَظُهم مِنْ أنْ يُفسِدوا أو يَخرُجوا عن أمرِه، أو يَنالُوهُ بسُوء.

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} [سورة النمل: ١٦]:

ووَرِثَ سُلَيمانُ أباهُ داودَ في المُلْكِ والنبوَّة، فصَارَ نبيًّا مَلِكًا، وقالَ مُقَدِّرًا نِعمَةَ اللهِ عَليه: أيُّها النَّاس، لقد عَلَّمَنا اللهُ لُغَةَ الطُّيورِ والدوابِّ وما تَتَخاطِبُ به، وأعطانا كُلَّ شَيءٍ يتعَلَّقُ بالملكِ والتَّمكينِ فيه، حتَّى سخَّرَ لنا الإنسَ والجِنَّ والطَّيرَ والرِّيح، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ عَلينا وإحسَانٌ منهُ لا يَخفَى.

وإحضارُ عرشِ بلقيسَ في لحظة، كان بتقديرٍ وتسخيرٍ من الله..
{قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل: ٤٠].

ومن المعجزاتِ التي أوتيَها عيسى عليهِ السَّلام، ما وردَ في الآيةِ الكريمة:
{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الموْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران:٤٩].
يقولُ نبيُّ الله عيسَى عليهِ السَّلامُ لبني إسرائيل، مُبيِّناً ما أيَّدَهُ اللهُ بهِ مِن المعجِزاتِ الباهِرات:
إنِّي قد أتَيتُ لكم بعَلامةٍ ودَليلٍ مِن ربِّكم لتَعلَموا أنِّي رَسولهُ إليكم، فأصوِّرُ لكم منَ الطينِ شكلَ طَير، ثمَّ أنفُخُ فيهِ فيَطيرُ في السَّماء، كما تَرونَهُ عِياناً، بإذنِ اللهِ وقُدرته.
وأَشفِي الأعمَى فيُصبِحُ مُبصِراً.
وأَشفِي المُبتلَى بالبرَص، وهوَ بياضٌ يُصيبُ الجسدَ لمرَض.
وأُحيي الموتَى بإذنِ الله.
وقد أيّدَ اللهُ عيسَى بمعجزاتٍ تُناسِبُ عصرَه، فكانَ في وقتِ انتشارِ الطبِّ وأهلِه، فجاءَ بما يُعجِزُهم ويُبهِرُ عُقولَهم، لئلاّ يكونَ لأحدٍ حُجَّةٌ في عدمِ تصديقِه.
قال: وأخبرُكم بما تأكلونَهُ في وقتِكم. وما تُخبِّؤونَهُ في بيوتِكم لغَدِكم.
وكلُّ هذا حُجَّةٌ بالِغةٌ ودَليلٌ على إرسالي إليكم، إذا كنتُم مُؤمِنين.

وإنَّ الذي قدَّرَ كلَّ هذا على يدِ عَبدٍ له، لا يُعجِزُهُ أنْ يَخلُقَ واحداً مثلي من دونِ أب، فهوَ على ما يَشاءُ قَدير، فآمِنوا بما هوَ حقٌّ ولا تَتجاوَزوه.

وقصةُ أصحابِ الكهفِ معجزةٌ عظيمة؛ ليعلَمَ الناسُ قدرةَ الخالق، وتصرُّفَه في خَلقهِ كما يشاء: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً}! [سورة الكهف: ٢٥].

تذكير وتخويف وإنذار

للتفكرِ والتدبر:

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ} [سورة القصص: ٧١]:

قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرَّسُول: أخبِروني، إذا أدامَ اللهُ عَليكمُ ظَلامَ اللَّيلِ إلى قيامِ السَّاعَة، مَن غَيرُهُ يَقدِرُ على أن يَأتيَ بنَهارٍ تُبصِرونَ فيهِ وتَعمَلون، ألا تَسمَعونَ وتُفَكِّرون، وتَفهَمونَ فتُؤمِنون؟

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة القصص: ٧٢]:

وقُلْ لهم: أرأيتُم لو أدامَ اللهُ عَليكُمُ النَّهارَ بضِيائهِ وحَرِّهِ إلى قيَامِ السَّاعَة، مَن غَيرُ اللهِ يأتيكم بلَيلٍ تَستَريحونَ فيهِ مِن عمَلِ النَّهار، أفلا ترَونَ ما يُحيطُ بكم مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على قُدرَةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه؟

{وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة القصص: ٧٣]:

فكانَ مِن فَضلِ اللهِ ونِعمَتِهِ عَليكم أنْ خلقَ لكمُ اللَّيلَ لتَسكنوا فيهِ وتَستَريحوا مِن عمَلِ النَّهار، وخلقَ النَّهارَ لتَعمَلوا فيهِ وتَطلبُوا الرِّزق، لتَعرِفوا نِعمَةَ ربِّكم بذلكَ وتَشكروهُ عَليها.

وتحذيرٌ للمشركينَ الذين استَعجَلوا العذاب!

{يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: ٥٤-٥٥]:

إنَّهم يَستَعجِلونَ العَذابَ وهوَ مُحيطٌ بهم، فهوَ واقِعٌ بهم لا مَحالَة، ولن يَبقَى كافِرٌ إلاّ ويَدخُلُ جَهنَّم.

في ذلكَ اليَومِ المخُوفِ المهُول، الذي يُؤمَرُ بهم إلى النَّار، يَأتيهمُ العَذابُ مِن كُلِّ الجِهات، مِن فَوقِهم، ومِن تَحتِ أرجُلِهم، وبالغُدوِّ والآصَال، ويَقولُ اللهُ لهم: ذُوقوا جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، وما كنتُم تَستَعجِلونَهُ مِنَ العَذاب، فقد حَلَّ أجَلُه.

وتحذيرٌ للمسلمين:

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [سورة الأنعام: ١٣٣].

تفسيرُها: إنَّ ربَّكَ – أيُّها الرسُولُ – غنيٌّ عنِ العالمينَ وطاعتِهم، بل همُ المحتاجونَ إليه. وهوَ الذي يرحمُكم بفَضلهِ وكَرمِه، ويُمهِلُكم إذا عَصَيتُم، وهوَ إذا شاءَ أهلكَكُم إذا خالفتُم أمرَه، كما فعلَ بأقوامٍ في القُرونِ الخالية، ويأتي بآخَرينَ مِن عبادهِ مكانَكم يُطيعونَه، كما أتَى بكم وأنتم مِن نَسْلِ قَومٍ آخَرين.

ثمَّ قالَ سُبحانه: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}.

أي: إنَّ الذي تُوعَدونَ بهِ منَ الحِسابِ والجزاءِ والدرجاتِ يومَ القيامةِ آتٍ قريبٌ لا مَحالة، ولا تُعجِزونَ اللهَ في ذلك، فهوَ قادرٌ على بعثِكم وإنْ كنتُم عِظاماً ورُفاتاً.

وتحذيرٌ لهم في غزوةِ تبوك، وكانتْ في شدَّةِ حَرٍّ وبُعد:

{إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة التوبة: ٣٩]:

إذا لم تَخرُجوا إلى الجِهادِ الذي دعاكم إليهِ رسُولُ الله ﷺ فسَوفَ يعاقبُكم بهلاكٍ، أو قَحْطٍ، أو غَيرِهِ منَ العُقوباتِ المؤلمةِ الشَّديدة، ويأتي اللهُ بقَومٍ أفضلَ منكم يجاهِدونَ معَ رسُولِه، فيُطيعونَهُ ويَنصُرونَه، ويُؤْثِرونَ الآخِرَةَ على الدُّنيا، ولن تضرُّوا اللهَ بتخلُّفِكم عنِ الجِهاد، فهوَ قادِرٌ على نَصرِ عِبادهِ مِن دونِكم، واللهُ لا يُعْجِزهُ شَيءٌ، فهو قادرٌ على هذا وغيرِه، لكنَّ الضَّررَ يعودُ عليكم.

ومن الترهيب والتخويفِ لمن عصى اللهَ وأبى الطاعة، قولهُ سبحانهُ لمن أصرَّ على التعاملِ بالرِّبا:

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [سورة البقرة: ٢٧٩].
معناها: إذا لم تَنتهوا عنِ التعَاملِ بالرّبا، فانتَظروا غَضَبَ الربّ، وتيقَّنوا حَرباً منَ اللهِ ورسولِه!
وهو تَرهيبٌ مُخيف، ووَعيدٌ شَديد، وغَضبٌ ماحِقٌ من جبّارِ السَّماواتِ والأرض، يُهَدِّدُ فيهِ الذينَ لا يَكفُّونَ عنِ التعاملِ بالرّبا بالعِقابِ والقَتل.
وهوَ عقابٌ دُنيويٌّ وأُخرَويّ. وهيَ مسؤوليةٌ كُبرى يَتحمَّلُها الحاكمُ خاصَّة. وقالُ أهلُ المعاني: حربُ اللهِ النَّارُ، وحربُ رسولِ اللهِ السَّيفُ.

وإنذارٌ وتخويفٌ للكافرين:
{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} [سورة الدخان: ١٦].
أي: في يَومِ القِيامَةِ نُنزِلُ بكمُ العُقوبَةَ الكُبرى، ونَنتَقِمُ منكم جَزاءَ كُفرِكم بآياتِنا وتَكذيبِكم رسُلَنا.

وتحذيرٌ وترهيبٌ للمؤمنين:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم: ٦]:
أيُّها المؤمِنون، أطيعُوا اللهَ وابتَعِدوا عن مَعاصيه، وأدِّبوا أهليكم، وانهَوهم عمَّا نَهَى اللهُ عنه، وأْمرُوهم بما أمرَ به، ليَكونَ ذلكَ نَجاةً لكم ولهم مِنَ النَّار، التي تتَّقِدُ بالنَّاسِ والحِجارَة، فهما حطَبُها الذي يُلقَى فيها وتُسعَرُ به، وقد وُكِّلَ بالنَّارِ وتَعذيبِ أهلِها ملائكةٌ أفظاظٌ قُساةٌ أشِدَّاءُ على الكافِرينَ بالله، لا يَعصُونَ ما أمرَهم اللهُ به، ويُبادِرونَ إلى فِعلِ ما يأمرُهم.

ولن يَضيعَ عملُ أحد، من محسنٍ ومسيء، مهما كان قليلًا، كلُّ يحاسَبُ على ما عمل:
{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [سورة الزلزلة: ٧-٨]:
فمَن يَعمَلْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ خَيرًا يُجْزَ بهِ خَيرًا، ويُضاعِفُ اللهُ لمن شاء.
ومَن يَعمَلْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ شَرًّا يُجْزَ بهِ شَرًّا.

ويَومَئذٍ لا يَحقِرُ الإنسَانُ شَيئًا مِن عمَلِه، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، وكُلُّ ذلكَ يَكونُ بحِسَابٍ دَقيق، فليَنظُرِ الإنسانُ ما يَقولُ وما يَفعَل.

وفي حديثٍ رواهُ أحمدُ وغَيرهُ وصُحِّحَ، أنَّ صَعْصَعَةَ بنَ مُعاويةَ أتَى النبيَّ ﷺ، فقَرأَ عليه {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}، قال: حسْبي، لا أُبالي أنْ لا أسمَعَ غيرَها!

وترهيبٌ عظيمٌ من الله:

{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة السجدة: ١٣].

بيانُها: لو أرَدنا لهدَينا كُلَّ نَفسٍ إلى الإيمَان، وأجبَرناها على القِيامِ بما يُرضي الله، كالملائكَةِ الذينَ لا يَعصُونَهُ فيما أمرَهم به، ولكنَّهُ سُبحانَهُ تركَ حُرِّيَّةَ الاختِيارِ للإنسَان، وبيَّنَ لهُ طَريقَ الخَيرِ والشَّرّ، وجعلَهُ مَسؤولاً عمَّا يَختارُ ويَعمَل.

وقد ثبتَ وتحقَّقَ القَولُ مِنِّي، لأملأنَّ جهنَّمَ مِنَ الكافِرينَ والضَّالِّينَ المخالِفينَ للحَقّ، مِنَ الجِنِّ والإنسِ أجمَعين، وأنتُم منهم أيُّها المشرِكون، فقد أغوَاكم إبليسُ فأطَعتُموه، واخترتُمُ الضَّلالَ على الهُدَى.

والعُصاةُ مِنَ المسلِمينَ يُعَذَّبونَ في جهنَّمَ ثمَّ يَخرجونَ منها، إلاّ مَن عَفا اللهُ عَنهم، فلا يُعَذَّبون.

ومثلهُ قولهُ سُبحانه:

{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود: ١١٩].

أي: هكذا نَفَذَ قضاءُ اللهِ وحَقَّ أمرُه، وتَمَّ حُكْمُه، بأنْ تَمتَلِئَ جَهنَّمُ منَ الكافِرينَ الضالِّين، المختَلِفينَ معَ أهلِ الحقِّ، المعادِينَ لهم، وتَمتَلِئَ الجنَّةُ بالمؤمِنينَ المتَّبِعينَ للحَقّ، منَ الجِنِّ والإنس.

العظمة في العقوبةِ الإلهية

من آثارِ عظمتهِ وآلائهِ سُبحانهُ التي تبعثُ على الخوفِ والرهبة:

{وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [سورة الرعد: ١٣]:

الرَّعْدُ يَذكُرُ اللهَ فيُقَدِّسُهُ ويَحمَدُه، بكيفيَّةٍ لا نَعلمُها {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء: ٤٤] وهوَ مِثلُ غَيرِهِ مِن الظَّواهرِ الطبيعيَّةِ وحرَكاتِها، مأمورٌ بأمرِ الله، فلا يُصَوِّتُ الغَيمُ إلاّ بإذنِه، فإذا رعدَ سَبَّح. والملائكةُ كذلكَ تُسبِّحهُ وتَحمَدُه، مِن هَيبتِهِ وعظَمَتِه. واللهُ يُرسِلُ الصَّواعِقَ نِقمةً يَنتَقِمُ بها ممَّن شَاءَ فتُهلِكُه، والمكَذِّبونَ يُنكِرونَ آياتِ الله، ويَشكُّونَ في قُدرتِه، ونِقمتِهِ وعُقوبتِه، وهوَ سُبحانَهُ شَديدُ الكَيدِ والقُوَّة، في عُقوبةِ مَن طغَى وتجبَّر، وعاندَ وتمادَى في الضَّلال، وأصرَّ على تَكذيبِ رسُلِه.

××× ××× ×××

للتذكيرِ والعِبرة:

{أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ} [سورة غافر: ٢١]:

أوَلَمْ يُسافِرِ المشرِكونَ فيَنظُروا في آثارِ الذينَ أهلَكناهُم ممَّن كانوا قَبلَهم، كثَمودَ وعادٍ وقَومِ لُوط، وقد كانوا أكثرَ قوَّةً وتمَكُّنًا منهم، وأكثرَ آثارًا وعُمرانًا، فانتَقمَ اللهُ منهم وأهلَكَهم، ولم تُغنِ عَنهم قوَّتُهم شَيئًا، ولم يَمنَعهم مِن عَذابِ اللهِ مانِع.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة غافر: ٢٢]:

لقد أصابَهُمُ الهَلاكُ جزاءَ كُفرِهم وجَرائمِهم، فقد كانتْ تَأتيهم رسُلُهم بالآياتِ الواضِحات، والمعجِزاتِ البيِّنات، الدَّالَّةِ على صِدقِ نبوَّتِهم، وصِحَّةِ رِسالاتِهم، فجَحدوا بها، وأصَرُّوا على الكُفر، فأهلَكَهمُ الله، إنَّهُ ذو قوَّةٍ عَظيمَةٍ فلا يُقهَر، وعِقابُهُ شَديدٌ لمن عَصاه.

وقالَ الله تعالَى في عاقبةِ قومِ لوط:

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} [سورة هود: ٨٢].

أي: قلَّبنا مُدُنَهم على رأسِها، فصاروا كلُّهم تحتَ الأرضِ أنقاضًا، وأرسَلنا عليهم حِجارَةً مِن طِينٍ مُتَحَجِّرٍ مُتراكِم، يَتْبَعُ بعضُهُ بَعضًا.

وقد أثبتَتْ دِراساتُ عُلومِ الأرض، أنَّ طَبقاتِ الصُّخورِ في مِنطَقَةِ جَنوبِ البحرِ الميِّت، وهيَ مكانُ سَكَنِ قومِ لوط، مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب، كما جاءَ في نَصِّ الآيةِ الكريمة.

وقالَ الله في فرعونَ وقومه:

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [سورة الأعراف:١٣٠].

أي: ابتَلينا قومَ فِرعونَ بالقَحطِ والجوعِ، ونقَصنا مِن مَحصولِ زِراعاتِهم وثَمراتِ أشجارِهم، بالآفاتِ وقلَّةِ الإنتاج؛ ليتذكَّروا بذلكَ ويتَّعِظوا ويتضرَّعوا إلى الله، ويَترُكوا ما هم عليهِ مِن شِرك.

ولما لم يَعتبروا، ولم يؤمِنوا بالمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها نبيَّهُ موسى عليه السلام، وقالوا له: {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}؛ عوقبوا بنوائبَ وكوارثَ أخرى متعاقبة:

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [سورة الأعراف: ١٣٣].

أي: كانَ جزاءَ كفرِهم وإصرارِهم على الباطِل، أنْ عاقبناهُم بإرسالِ الطُّوفانِ عَليهم، فملأ بيوتَهم، وأتلفَ زرُوعَهم، وأغرَقَ أراضيَهم... ثمَّ أرسَلنا عليهمُ الجرادَ فأتلفَ ما بقيَ مِن زُروعِهم، وأكلَ ثمارَهم ونباتَهم، ثمَّ القملَ – وكفى بهِ عذاباً –، والضفَادِع، التي ملأتْ بيوتَهم وأوعيتَهم وأطعِمتَهم، ثمَّ الدمَ ليجريَ في مياهِهم، فصارُوا يَشرَبونَ الدم، ولا يَطبخون! ... وكلُّها آياتٌ وأدلَّةٌ وعِبَرٌ إلهيةٌ بيّنةٌ، كافيةٌ للرَّدعِ عنِ الكُفر، والاستِسلامِ لله، والإيمانِ برسالتِه، ولكنَّهم معَ كلِّ هذا استَكبَروا عنِ الإيمانِ بها، فكانوا كافِرينَ مُجرِمين.

والنتيجةُ الأخيرةُ كانتِ الغرق، التي أنهتْ حُكمَ فرعونَ المتجبِّر، وملئهِ المفسدينَ الفاسقين.

وكانَ قارونُ من أغنَى أغنياءِ العالمِ في وقته، وكانَ من قومِ موسى عليه السلام، ولكنْ أخذَهُ البطرُ والصَّلَف، فكانَ عاقبتَهُ الخسفُ به وبأمواله، وهو في أبهَى حُلَله!

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ} [سورة القصص: ٨١]:

في يَومِ زِينَتِهِ وفَخرِهِ وطُغيانِهِ خسَفنا بهِ وبِدارِهِ وأموالِهِ الأرض، فابتلَعَتْهم، وغارَتْ بهم، فما كانتْ هُناكَ جَماعَةٌ مِن أنصارِهِ تَدفَعُ عنهُ نِقمَةَ اللهِ وعَذابَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على الانتِصارِ لنَفسِه!

ومن عقوباتِ بني إسرائيل:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [سورة الأعراف: ١٥٢].

معناها: إنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهاً لهم يَعبُدونَهُ مِن دونِ الله، سيَلحَقُهم غَضَبُ اللهِ وعُقوبتُه، وذِلَّةٌ واستِكانةٌ إلى يَومِ القِيامة، كما أغضَبوا ربَّهم واستهانوا بأمرِه، وهذا هوَ جزاءُ الكاذِبينَ على الله، المفتَرينَ على دينِه.

والذلُّ هوَ هزائمُهم وما تعرَّضوا لهُ مِن قَتل، وضُرِبَ عليهم مِن جِزية، وعاشوا تحتَ حُكمِ الآخَرين.

وقالَ صاحبُ الظِّلال: علمَ اللهُ أنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ لن يَتوبوا توبةً مَوصولة، وأنَّهم سيَرتكِبونَ ما يُخرِجُهم مِن تلكَ القاعِدة، وهكذا كان، فقد ظلَّ بَنو إسرائيلَ يَرتَكِبونَ الخطيئةَ بعدَ الخطيئة، ويُسامِحُهمُ اللهُ المرَّةَ بعدَ المرَّة، حتَّى انتَهَوا إلى الغضَبِ الدائم، واللَّعنةِ الأخيرةِ.

ومن العقوباتِ الكبيرةِ التي استحقَّها بنو إسرائيل، ما ذكرَهُ الله تعالَى في كتابهِ الكريم:

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [سورة المائدة: ٣٢].

أي: بسبَبِ مفَاسدِ هذهِ الجِنايةِ، مِن قتلِ ابنِ آدمَ أخاهُ ظُلماً وعُدواناً، قَضَينا على بَني إسرائيلَ في التَّوراة، أنَّ مَن قتلَ نَفساً بغَيرِ قِصاص، أو بغيرِ فَساد، فاستحلَّ قتلَها بغَيرِ سبَبٍ ولا جِنابة، ككفرٍ، أو زِناً، أو نَحوِ ذلك، فكأنَّما قتلَ الناسَ كلَّهم، وعليهِ وِزْرُها!

وكانَ الحسدُ مَنشأَ هذهِ الجِناية، وهوَ غالِبٌ على بَني إسرائيلِ. ومعَ ما نزلَ عليهم مِن تَعظيمِ القَتل، فقد كانوا أشدَّ طُغياناً فيه، فقد أقدَموا على قتلِ الأنبياءِ والرسُل، ممّا يَدُلُّ على غايةِ قَساوةِ قلوبِهم، ونهايةِ بُعدِهم عن طاعةِ اللهِ تعالى، وبسبَبِ ذلكَ شُدِّدَ عليهم وعُظِّمَ مِن أمرِ القَتلِ عندَهم.

ومَن تورَّعَ عن قتلِ النَّفس، أو تسبَّبَ في إبقائها واستنقاذِها مِن أسبابِ الهَلاك، فكأنَّما حازَ ثوابَ سلامةِ النَّاسِ كلِّهم!

ولقد جاءَتهُم رسلُنا بالحُجَجِ الواضِحَة، والبراهينِ الناطِقَة، تأكيداً لوجوبِ ما فرَضنا عليهم، ومعَ كلِّ ذلكَ فقد كانَ الكثيرُ منهم مُسرِفاً في القَتلِ، غيرَ مُبالٍ به، معَ ارتِكابِهم محرَّماتٍ أُخرَى، وإفسادِهم في الأرض.

وهذا تذكيرٌ عامٌّ بعقوبةِ بني إسرائيلَ المخيفة، الذين نقضوا عهودَهم مع الله، وكرَّروا أخطاءَهم: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [سورة المائدة: ١٣].

أي: بسببِ نقضِهمُ العهدَ المؤَكَّدَ الذي أُخِذَ عليهم، أبعدناهم عن رَحمتِنا، وطَردناهم منَ الهُدى؛ عقوبةً لهم، وجَعلنا قلوبَهم غَليظةً لا تَلين، تَنبو عن قبولِ الحقّ، ولا تَتَّعظُ بموعِظة.

وكانوا يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ ويَفتَرونَ عليه، ويؤوِّلونَه، ويَحمِلونَهُ على غيرِ مُرادِه، وتَركوا قِسماً وافياً منَ التَّوراة فلم يَعمَلوا به.

ولا يزالُ هذا شأنَهم حتَّى صارَ المكرُ والخيانةُ عادةً لهم، فترَى من آثارِ ذلكَ غدرَهُم بكَ وأذاهُم لكَ ولأصحابِكَ الآن، إلا القليلَ منهم، وهمُ الذينَ أسلَموا.

وعقوبةٌ للنصارَى أيضًا:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [سورة المائدة: ١٤].

تفسيرها: الذينَ ادَّعَوا أنَّهم نصارَى مُتابِعونَ لعيسَى بنِ مريمَ عليهِ السَّلام، وهم ليسُوا كذلك، أخَذنا منهمُ العهودَ والمواثيقَ بمتابعةِ الرسولِ ومناصَرتِه، والإيمانِ بأنبياءِ اللهِ كلِّهم، ومنهم محمَّدٌ

ﷺ، ولكنَّهم خالَفوا ونَبذوا قِسماً كبيراً ممّا عُلِّموهُ وذُكِّروهُ في التوراةِ والإنجيل، وصَاروا مثلَ اليهودِ مُناقِضينَ للمَواثيق، فكانَ جزاؤهم أنْ ألقَينا بينهمُ العَداوةَ والحِقدَ والتباغُض، حتَّى صارَ يَلعنُ بعضُهم بعضاً ويُكفِّروهَم، ولا يَزالُ هذا شأنَهم حتَّى آخِرِ الدُّنيا، وسوفَ يُحاسِبُهمُ اللهُ على أعمالِهم وما نَسبوهُ إليهِ زُوراً وبُهتاناً، وما نَقضوهُ منَ العُهودِ والمواثيقِ التي أخذَها عليهم، ويُعذِّبهم على ذلكَ عذاباً شديداً.

وقالَ في حقِّهم أيضًا:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [سورة المائدة: ٧٢]:

لقد كفرَ مَن قالَ مِنَ النَّصارَى إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ بنُ مريم، وقد قالَ المسيحُ نفسُه: يا بَني إسرائيل، اعبُدوا اللهَ وحدَه، فهوَ ربِّي وربُّكم، ونحنُ جميعاً عَبيدٌ لله، وإنَّ مَن يُشرِكْ بهِ في عبادتهِ فقد حرَّمَ عليهِ دُخولَ الجنَّة، وأوجبَ لهُ النَّار. وقد ظَلموا بإشراكِهم وكفرِهم هذا وعَدَلوا عن طريقِ الحقّ، ولن تَجِدَ لهؤلاءِ الظَّالمينَ مُعيناً ولا ناصِراً يُنقِذُهم من عَذابِ اللهِ وعُقوبتهِ المقدَّرةِ عليهم.

وقالَ الله تعالَى في عقوبةِ قومِ شُعيب:

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف: ٩١، ٩٢].

بيانُها: فزَلزلَ اللهُ الأرضَ مِن تحتِهم وأهلكَهم أجمَعين، وصاروا موتَى خامِدين؛ لا أثرَ للحياةِ والحركةِ فيهم.

وصَاروا كأنَّهم لم يُقيموا في ديارِهم ولم يعمّروها، لِمَا أصابَهم مِن عِقابٍ مُفزِعٍ رَهيب، لقد صارَ الذينَ كذَّبوا شُعَيباً همُ الخاسِرينَ الخائبين، في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، وليسَ الخاسِرُ مَنِ استجابَ للحقِّ واتَّبعَ شُعَيباً.

وقالَ في عقوبةِ عادٍ وثمود:

(الآيات ٤-٨ من سورة الحاقة):

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}:

كذَّبَتْ قَبيلَتا ثَمودَ وعادٍ بيَومِ المعاد، الذي يَقرَعُ النَّاسَ فيُخيفُ قُلوبَهم، ويُفزِعُهم بأهوالِه.

{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}:

فأمَّا ثَمودُ فقد أهلكَهمُ اللهُ بالصَّيحَةِ القويَّة، فأرجفَتْهُم وجعَلَتْهُم جُثَثًا هامِدَة؛ لطُغيانِهم وتَكذيبِهم نبيَّهم صالحًا.

{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}:

وأمَّا عادٌ قَومُ هُود، فقد أهلكَهمُ اللهُ بريحٍ قَويَّةٍ عاصِفَة، شَديدَةِ الهُبوب.

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}:

سلَّطها عَليهم سَبعَ لَيالٍ وثَمانيةَ أيَّامٍ مُتَتابِعات، لم تَنقَطِعْ عَنهم، فترَى القَومَ في تلكَ الأيَّامِ واللَّيالي هَلكَى، كأنَّهم أعجازُ نَخلٍ خَربَةٍ باليَة.

{فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}:

فهل ترَى لهم بَقيَّةً بعدَ هذا العَذاب؟ لقد هلَكوا جَميعًا.

عقوباتٌ كثيرة، وأقوامٌ عديدون:

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ}:

كذَّبَ بالبَعثِ قبلَ مُشرِكي قَومِكَ قَومُ نُوح، الذينَ طالَ مَكثُهُ بينَهم نَحوَ ألفِ عام، وأصحابُ الرَّسّ، لعلَّهم أصحابُ الأُخدُود، وثَمودُ قَومُ صالح، الذينَ عصَوا وعقَروا النَّاقَة.

{وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ}:

وعادٌ قَومُ هود، الذينَ كانوا بالأحقَاف، وفِرعَونُ مَلِكُ مِصرَ المتَكبِّر، ومعَهُ قَومُه، والذينَ أُرسِلَ إليهم لُوطٌ عليهِ السَّلام، وكانوا في مِنطَقَةِ البَحرِ الميِّت، وقد أصَرُّوا على فعلِ الفاحشَةِ بالرِّجالِ ولم يَنتَهوا.

{وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ} [سورة ق: ١١-١٤]:

وأصحَابُ الأيْكة، وهم أهلُ مَدْيَن، وقَومُ المِلكِ الحِميَريِّ تُبَّع، أمَّا المِلكُ نفسُهُ فقد آمَن.

فكُلُّ هؤلاءِ الأقوامِ كذَّبوا الرسُل، وأنكَروا المعاد، وأصَرُّوا على الكُفر، فوجَبَ عَليهم ما أوعَدتُهم بهِ مِنَ العَذاب.

{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ} [سورة الأنبياء: ١١]:
وكم أهلَكنا مِن أهلِ القُرَى الذينَ كذَّبوا رسُلَهم، واستأصَلناهُم فلم نُبْقِ منهم أحَدًا، وأتَينا بقَومٍ آخَرينَ ليسُوا منهم، أفلا تَعتَبِرون؟.

{فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة العنكبوت: ٤٠]:
فعاقَبنا كُلاًّ بما يُناسِبهُ ويُلائمُ جُرمَه، فمنهم مَن أهلَكناهُم بريحٍ عاصِفٍ فيها حَصباء، وهُم عادٌ قَومُ هُود، وكانوا أقوياءَ مُتَجبّرين.
ومنهم مَن أهلَكناهُ بالصَّيحَةِ القَويَّة، التي خلَعَتْ قلوبَهم وأخمَدَتْ أصواتَهم، منَ الهَلَعِ والفَزَع، فصَاروا جاثِمينَ هامِدين، لا حركَةَ لهم، وهُم ثَمودُ ومَدْيَن.
ومنهم مَن خسَفنا بهِ وبدارِهِ الأرض، كقارُون، الذي أَشِرَ وبَطِر، وكفرَ بنِعمَةِ رَبّه.
ومنهم مَن أغرَقناهُم بماءِ الطُّوفان، وماءِ البَحر، كقَومِ نوحٍ، وفِرعَونَ وجُندِه.
وما كانَ اللهُ ليُهلِكَهم بدُونِ ذَنب، ولكنَّهم عُوقِبوا لكُفرِهم وتَكذيبِهم أنبياءَهم، ولظُلمِهم وفَسادِهم، ولم يَرتَدِعوا عَن ذلك.

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص: ٥٩]:
واللهُ لا يُهلِكُ أهلَ مَدينَةٍ أو قَريَةٍ حتَّى يَبعثَ في أعظَمِها رَسولاً يُنذِرُهم ويُبَيّنُ لهم ما يأتونَ وما يَذَرون، ممَّا نوحي إليهِ مِن آياتِنا النَّاطِقَةِ بالحَقّ، ولا نُهلِكُ أحدًا منهم إلاّ إذا كذَّبوهُ وكفَروا بآياتِنا ونِعَمِنا عَليهم.

فهيَ عقوباتٌ إلهيةٌ عادلة:

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود: ١٠٢]:
ومِثْلُ ما مرَّ مِن إهلاكِ الأقوامِ والقُرَى يَكونُ إهلاكُ ربِّكَ لها ولأشباهِها؛ بسَبَبِ ظُلمِها وعُتوِّها، إنَّ عَذابَ اللهِ وإهلاكَهُ شَديدُ الألَمِ، قويُّ الأثَر، وإنَّ بأسَ ربِّكَ لشَديد. وفي الصحِيحَين: "إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظَّالِمِ، حتَّى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ".

والعِبرة:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود: ١٠٣]:
إنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ الكافِرةِ عِظَةً وعِبرَةً لمن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر، ففيهِ مِن تَعذيبِ الكافِرينَ الظَّالِمينَ بالنَّارِ في الآخِرَةِ ما يُشْبِهُ إهلاكَهم في الدُّنيا، فكِلاهُما عَذاب، لكنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبقَى، ذلكَ اليومُ الذي يَجتَمِعُ النَّاسَ فيهِ كلُّهم، أوَّلُهم وآخِرُهم، للمُحاسَبةِ والجَزاء، إنَّهُ يَومٌ مَشهودٌ عَظيم، يَشهَدُهُ أهلُ السَّماءِ والأرض.

××× ××× ×××

وهذا ترهيبٌ وتخويفٌ من الردَّةِ عن دينِ الإسلام:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة المائدة: ٥٤]:
أيُّها المؤمِنون، مَن يَرجِعْ منكم عن دينِ الإسلامِ إلى مِلَّة الكُفر، فلنْ يَضُرُّوا سِوَى أنفسِهم، وإنَّ اللهَ سيَسْتَبدلُ بكم مَن هم خيرٌ منكم لهذا الدِّين، يُحِبُّهمُ الله، ويُحِبُّونَ الله ، فيَصْدُقونَ في إيمانِهم، ويُخلِصونَ في طاعتِهم، ويَمتثِلونَ أوامرَ ربِّهم، ويُحِبُّونَ إخوانَهُمُ المؤمِنين، فيَتواضَعونَ لهم، ويُوالُونَهم، ويَرحَمونَهم، ويَتعاطَفونَ مَعهم، ويَتعاوَنونَ معهم على البِرِّ والخَيرِ والتقوَى، ويَكونونَ أشدّاءَ مُتَعزِّزينَ على أعداءِ اللهِ وخُصَماءِ الدِّين، منَ الكفّارِ الجاهلين، فيُعادُونَهم ويُغالِبونَهم، ويُقاتِلونَهم لنُصرةِ دينِ اللهِ وإعلاءِ كلمتِه، لا يَهابونَ أحداً مِن أعدائه، ولا يَحسَبونَ حِساباً للَومِ مُناصِريهم وخِذْلانِ مواليهم، ولا يَرُدُّهُم عن هدفِهم وغايتِهم شَيء. وهذا مِن فضلِ اللهِ وتوفيقِه، ولُطفهِ وإحسانهِ

لمنْ شاءَ مِن عبادِه، وهوَ سُبحانَهُ واسِعُ الفَضل، عليمٌ بمَنْ يَستحِقُّ هذا الفَضلَ والإكرامَ ومَن لا يَستحِقُّ منهم.

وعقوبةٌ شديدةٌ للمنافقين:

{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة التوبة: ٧٥]:

ومنَ المنافِقينَ مَن عاهدوا اللهَ وقالوا: لئن أغنانا اللهُ بالأموالِ لَنتَصَدَّقنَّ ونُعطي حُقوقَ الفُقَراءِ منها، ولَنكونَنَّ ممَّن يُطيعُ اللهَ ويَعمَلُ الأعمَالَ الصَّالحة.

{فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة التوبة: ٧٦]:

فلمّا أعطاهمُ المالَ والمتاعَ لم يَفُوا بعَهدِهم، فمنَعوا حقَّ اللهِ منَ الأموالِ التي أعطاهُم، ولم يُنفِقُوها في الخيراتِ والمبرّاتِ كما عاهَدوا، وأعرَضوا عن طاعةِ اللهِ ولم يَكونوا منَ الصَّالحين.

{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} [سورة التوبة: ٧٧]:

فجَعلَ اللهُ عاقبةَ أمرِهم نِفاقاً في قُلوبِهم، وحرَمهم منَ التَّوبةِ حتَّى الموت، وذلكَ لِغدْرِهم بعَهدِ اللهِ الذي عاهَدوهُ عليه، ونَقضِهم ميثاقَهُ الذي واثَقوهُ عليه، وبما كانوا يَكذِبونَ ويَقولونَ إنَّهم سيَكونونَ صَالحينَ يؤدُّونَ حقَّ اللهِ إذا أغناهم، فالتَهَوا بالمال، واستَسلموا للشَّهوات، ورَكنوا إلى الدُّنيا، ونَسُوا الله.

العظمة في الإنعام والتسخير

قالَ الله تعالَى فيما منَّ به على عبادهِ وسخَّرَه لهم:

{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [سورة إبراهيم: ٣٤].

تفسيره: وأعطاكُمُ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَألتُموه، ممّا تَحتاجونَ إليهِ في جَميعِ أحوالِكم.

وإنْ تَعُدُّوا نِعَمَ اللهِ عَليكم لن تتَمكَّنوا مِن إحصَائها، ولو إجمالًا، فإنَّها كَثيرَةٌ جِدًّا.

ومعَ ذلكَ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَظلِمُ نَفسَهُ بالمعصيَة، فيَجعَلُ للهِ شُركاءَ ويَعبُدُهم، وهوَ الذي أنعمَ عَليهم، والشُّرَكاءُ لم يَفعَلوا شَيئًا، فيَكونُ كافِرًا بالنِّعمةِ والمنعِمِ، جاحِدًا بفَضلِه، مُنكِرًا لرُبوبيَّتِه.

وقالَ سُبحانه:

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة لقمان: ٢٠]:

ألمْ تَنظُروا كيفَ ذَلَّلَ اللهُ لكم ما يَلزَمُكم ممَّا في السَّماواتِ والأرض، مِنَ اللَّيلِ والنَّهار، والرِّيحِ والمطَر، والشَّجَرِ والثَّمَر، والدَّوابِّ والطَّير، وجَميعِ ما في البَرِّ والبَحر، وأوسعَ عَليكم نِعمَهُ الظَّاهِرَةَ والباطِنَة، الواضِحةَ والخَفيَّة، مِن إرسالِ الرُّسُل، وإنزالِ الكتُب، والسَّمعِ والبصَر، والعَقلِ والفَهم... وهُناكَ مَن يُناقِشُ ويُخاصِمُ في تَوحيدِ اللهِ وإرسَالِ الرسُلِ والمعاد، بغَيرِ دَليلٍ عِلميٍّ ولا استِنادٍ إلى حُجَّةٍ صَحيحَة، ولا كِتابٍ صَحيحٍ يُبَيِّنُ مُعتقَدَه.

ومن هذه النِّعم:

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الروم: ٤٨]:

اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَبعَثُ الرِّياح، فتُحَرِّكُ السَّحابَ وتَنشُرُه، فيَمُدُّهُ ويَبسُطُهُ في الجَوِّ بَسْطًا، مُتَّصِلاً تارَةً وقِطَعًا مُتفَرِّقَةً تارَة، فترى المطَرَ بعدَ ذلكَ يَنزِلُ مِن بَينِه، فإذا أنزَلَهُ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، إذا هم يَفرَحونَ بهِ ويُسَرُّون.

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} [سورة الروم: ٤٩]:

وقد كانوا مِن قَبلِ أنْ يَنزِلَ عَليهمُ المطَرُ آيسِينَ مِن نُزولِه، فما كانوا قادِرينَ على أنْ يَفعَلوا شَيئًا، وما كانوا يَجِدونَ مُقَدِّماتِ المطَر، وقد ذهبَ وَقتُهُ أو كاد.

{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الروم: ٥٠]:

فانظُرْ إلى نَتيجَةِ نُزولِ المطَرِ الذي رَحِمَهمُ اللهُ به، كيفَ اهتزَّتِ الأرضُ وانتعَشَتْ وأنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيج، بعدَ أنْ كانتْ يابِسَةً قاحِلَةً لا حَياةَ فيها، إنَّ الذي أحيَا الأرضَ بعدَ مَوتِها، قادِرٌ على إحيَاءِ البشَرِ بعدَ مَوتِهم، وهوَ قادِرٌ على هذا وعلى كُلِّ شَيء، {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة غافر: ٦٨].

ومنها، للتفكرِ والاعتبار:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سورة لقمان: ٣١]:

ألمْ تَنظُرْ كيفَ تَجرِي السُّفُنُ والبَواخِرُ والأساطيلُ في البَحرِ بتَسخيرِ الله، فجَعلَ فيهِ مَوازينَ لتَطفوَ عليهِ بالرَّغمِ مِن ثِقْلِها، ليُرِيَكم دَلائلَ ألوهيَّتِهِ وقُدرَتِه؟ وفي تَسخيرِ البَحرِ لكم ولُطفِهِ بكم لتَجريَ فيهِ السُّفُنُ مُحمَّلةً بالأطعِمَةِ وعُروضِ الأموَالِ ومَوادِّ التِّجارة، آياتٌ وعِبَرٌ لمن كانَ كثيرَ الصَّبرِ على الشدَّةِ والضرَّاء، كثيرَ الشُّكرِ لرَبِّهِ وهوَ في النَّعيمِ والرَّخاء.

وبإيجاز:

{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الجاثية: ١٣]:

بيانها: خلقَ اللهُ لمنافعِكم ما في السَّماواتِ والأرضِ مِن مَوجُوداتٍ فيما يَخصُّكم، وجَميعُها مِن فَضلِهِ ونِعمَتِهِ عَليكم، وفي ذلكَ كُلِّهِ آياتٌ وأدِلَّةٌ على قُدرَتِهِ وعظمَتِه، لمن يَتفَكَّرُ في خَلقِهِ وبَديعِ صُنعِه.

عظمة الثواب

أنزلَ الله كتابَهُ الكريمَ في ليلةِ القدر، وهي في العشرِ الأواخرِ من شهرِ رمضانَ المبارك، وجعلَ لمن يقيمَها ثوابًا عظيمًا:

{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [سورة القدر: ٣].

أي: العمَلُ الصَّالحُ في لَيلةِ القَدر، خَيرٌ مِن عمَلِ ألفِ شَهرٍ ليسَ فيها ليلةُ القَدْر.

وقالَ الله تعالَى في حُسنِ الثواب:

{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: ٩٦]:

وإنَّ ما عِندَكم – أيُّها النَّاسُ – مِن مَالٍ ومَتاعٍ يَنتَهي ويَزول، فمُدَّتُهُ قَصيرَةٌ مهما كَثُر، وما ادَّخَرَهُ اللهُ في الآخِرَةِ لمن صَبرَ على طاعَتِهِ مِن ثَوابٍ ونَعيمٍ يَدومُ ولا يَنقَطِعُ أبدًا، وسَوفَ نُجازي مَن صبرَ على تَكاليفِ الوفاءِ بالعُهودِ أفضلَ ما يُجازَى بهِ المرءُ على أعمالٍ حسَنةٍ عَمِلَها.

العدلُ في السيئة، والجودُ في الثواب:

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة غافر: ٤٠]:

مَن عَمِلَ في الحيَاةِ الدُّنيا سَيِّئة، فلا يُعاقَبُ في الآخِرَةِ إلاّ بما يَستَحِقُّهُ على تلكَ السَيِّئة، قَضاءً عَدْلاً مِنَ الله، ومَن عَمِلَ عمَلاً حسَنًا، ذَكَرًا كانَ أو أُنثَى، وهوَ مِنَ المؤمِنين، فأولئكَ يَدخُلونَ جَنَّاتِ النَّعيم، ويُكافَؤونَ فيها بدونِ حِساب، ويُضاعَفُ لهُمُ الثَّوابُ أضعافًا كثيرَة.

الثوابُ يكونُ عظيمًا من الله. قالَ الكريمُ الرحيمُ جلَّ جلاله:

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة:١٠٠].

تفسيرها: والسابِقونَ الأوَّلونَ ممَّنِ اعتَنقوا الإسلامَ وناصَروا رَسُولَ اللهِ ﷺ منَ المهاجِرينَ الذينَ هاجَروا إلى المدينةِ دارِ الإسلام، ومنَ الأنصارِ أهلِ المدينةِ الذينَ آوَوا إخوانَهُمُ المهاجِرينَ وآزَروهم،

والذينَ لَحِقوا بهم من بعدِهم بالإيمانِ والطَّاعةِ إلى يَومِ القيامة، فاقتَدَوا بهم واتَّبَعوهم بإحسَان، ولم يَقولوا فيهم سُوءًا، فأولئكَ رَضِيَ اللهُ عنهم بقَبولِ طاعتِهم وارتِضاءِ أعمالِهم، ورَضُوا هم عنهُ بما نالُوهُ منَ النَّعيمِ والرَّحمةِ الواسِعة، وقد هيَّأ لهم في الآخِرَةِ جنّاتٍ عالِيات، تَجري مِن تحتِها الأنهار، مُستَقِرّينَ فيها أبداً، وذلكَ هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، والسَّعادةُ والهَناء.

وممَّا قالَهُ ابنُ كثيرٍ في هذا رَحِمَهُ الله: فيا ويْلَ مَن أبغَضَهم، أو سَبَّهُم، أو أبغَضَ أو سبَّ بعضَهم... فأينَ هؤلاءِ منَ الإيمانِ بالقُرآن، إذْ يَسُبُّونَ مَن رَضِيَ اللهُ عنهم؟ وأمّا أهلُ السنَّةِ فإنَّهم يَترَضَّونَ عمَّن رَضِيَ اللهُ عنهم... ويُوالُونَ مَن يُوالي الله، ويُعادُونَ مَن يُعادِي الله، وهم مُتَّبِعونَ لا مُبتَدِعون...

ويكفي أن تكونَ البُشرى من الله!

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً} [سورة الأحزاب: ٤٧]:

وبَشِّرِ المؤمِنينَ بأنَّ لهم ثَوابًا عَظيمًا وعَطاءً جَزيلاً يَومَ القِيامَة.

وفي وصفٍ للجنة، لبيانِ عظمِ ما جازَى به الربُّ عبادَهُ المؤمنين:

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} [سورة محمد: ١٥].

تفسيرها: صِفَةُ الجنَّةِ التي وَعدَ اللهُ بها عِبادَهُ المؤمِنينَ المتَّقين: فيها أنهارٌ عَظيمَة، وكثيرَة، مِن ماءٍ لَذيذٍ غَيرِ مُتَغيِّرٍ في طَعمِهِ وريحِهِ ولَونِه، وأنهارٌ مِن لبَنٍ في غايَةِ البَياضِ والحَلاوَة، لم يتغيَّرْ طَعمُه، فلم يَحمَضْ ولم يَفسُد، وأنهارٌ أُخرَى مِن خَمرٍ صافيةٍ لَذيذَةٍ لمن يَشرَبُها، وليسَتْ كريهَةَ الطَّعمِ والرَّائحة، لا تُسكِر، ولا تُسبِّبُ ألَمًا في الرَّأسِ أو البَطن. وأنهارٌ مِن عسَلٍ في غايَةِ الصَّفاء، لم يُخلَطْ بهِ شَمعٌ أو غَيرُه. ولهم في الجنَّةِ ما يَشتَهونَ مِن أنواعِ الثِّمارِ والفَواكِه، ومَغفِرَةٌ عَظيمَةٌ مِن رَبِّهم.

أفمَن كانَ في هذا النَّعيمِ مُخَلَّدًا، كمَن هوَ مُخلَّدٌ في نارِ الجَحيم، وسُقوا ماءً شَديدَةَ الحرارَةِ والغَليان، تَقطَّعَتْ منهُ أمعاؤهم وأحشَاؤهم؟

ويعمُّ أهلَ الجنةِ رضا الله، وهو فوقَ كلِّ مطلب!

{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [سورة البينة: ٨].

بيانُها: ثَوابُهم على إيمَانِهم وطاعتِهم يَومَ القِيامَةِ جنَّاتُ إقامَةٍ دائمَة، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها الأنهَار، خالدينَ فيها، لا يَبغونَ عنها تَحوُّلاً، لِما فيها مِنَ السَّعادَةِ والنَّعيم. رَضيَ اللهُ عنهم، ورِضوانُهُ سُبحانَهُ أعلَى ما أُوتُوهُ مِنْ النَّعيم. ورضُوا عنهُ فيما منحَهم مِن فَضلِهِ العَميم، ممَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قَلبِ بشَر. وهذا الثَّوابُ الجَزيل، هوَ لمن خَشِيَ اللهَ في الدُّنيا ولم يُخالِفْ أمرَه.

العظمةُ في التوحيد، والاستغناءِ عن عبادة الناس وحمدهم

في الوادي المقدَّسِ نُوديَ موسى:

{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [سورة طه: ١٤]:

إنَّني أنا اللهُ، ذو الأُلوهيَّةِ والمعبوديَّةِ على خَلْقِهِ أجمَعين، لا إلهَ إلاّ أنا، الواحِدُ الأحَد، المستَحِقُّ للعِبادَةِ وَحدي، فاعبُدْني ووَحِّدْني ولا تَعبُدْ غَيري، وأقِمِ الصَّلاةَ لتَذكُرَني فيها.

ولو كانَ في السَّماءِ والأرضِ أكثَرُ مِن إلهٍ لخَرِبتا ودُمِّرتَا؛ لتَعَدُّدِ الإراداتِ والأوامِر، فهذا يتَصرَّفُ بشَيء، وذاكَ يُدَبِّرُ أمرًا آخَر، فتتقاتَلُ وتتذابَحُ الآلِهَةُ كما هوَ شَأنُ الملوكِ في الأرض، فتَخرِبُ الدُّنيا. وما دامَ أمرُ السَّماواتِ والأرضِ ثابِتًا، وعلى دِقَّةٍ ونِظامٍ واحِدٍ مُتكامِل، فهذا يَعني أنَّهُ لا توجَدُ عِدَّةُ آلهَة، بل إلهٌ واحِدٌ يُدَبِّرُ الكَونَ كُلَّه، ويَتصَرَّفُ فيهِ وحدَه.

فتعالَى اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ وتقَدَّسَ عمّا يتفَوَّهُ بهِ هؤلاءِ المشرِكون، ويَدَّعونَ لهُ الولَدَ والشَّريك.

وصدقَ الله فيما قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٢].

ومثلهُ قولهُ تعالَى:

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة المؤمنون: ٩١]:

لم يَتَّخِذِ اللهُ ولَدًا، فلا يُشبِهُهُ أحَد، وليسَ هوَ بحاجَةٍ إلى أحَد، ولم يَكنْ لهُ شَريكٌ في الأُلوهيَّة، ولو كانَ هُناكَ إلهانِ أو أكثَر، لانفرَدَ كُلُّ إلهٍ بنَصيبِهِ مِنَ الخَلقِ واستقَلَّ بهِ عنِ الآخَر، وتفرَّدَ بالتصَرُّفِ فيه، ولَمَا وُجِدَ هذا التَّنظيمُ والتناسُقُ الشَّامِلُ في الكونِ كُلِّه.

ثمَّ إنَّ الأمرَ لا يَبقَى هكذا دونَ تَنافُسٍ وتَخاصُم، فسيَعلو إلهٌ على آخَر ويُحارِبُهُ ويُغالِبُهُ ليَقضيَ عَليهِ ويَستأثِرَ بمُلكِه، كما هوَ الشَّأنُ في مُلوكِ الدُّنيا. فتنَزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ عمَّا يَصِفونَهُ بهِ مِن دَعوَى الولَدِ والشَّريك.

وسورةٌ جليلةٌ في القرآن، هي سورةُ الإخلاص، فيها بيانُ التوحيد:
{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ}.
تفسيرُها:
قُلْ: هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، لا ثانيَ له، ولا شَبيهَ له، وحدَهُ الكامِلُ في صِفاتِهِ وأفعالِه.
اللهُ الذي يُقصَدُ في الحَوائجِ والرَّغائب، الكُلُّ مُحتاجٌ إليهِ وهوَ غَيرُ مُحتاجٍ إلى أحَد، ولا يُقضَى أمرٌ إلاّ بإذنِه.
لمْ يَتوَلَّدْ منهُ شَيء، فليسَ لهُ ولَد. ولم يَتوَلَّدْ هوَ عن شَيء، فلا أبَ لهُ ولا أُمّ، فهوَ ليسَ بوالدٍ ولا مَولود. سُبحانَه، فهوَ مَوجودٌ قَبلَ وجُودِ الأشَياء.
ولم يوجَدْ لهُ مُماثِلٌ أو مُكافِئٌ في الوجُودِ كُلِّه، ولم يُشاكِلْهُ أحَد، فلا شَبيهَ لهُ في ذاتِه، ولا في صِفاتِه، ولا في أفعالِه.

ومن عزَّتِهِ وعظمتِهِ سُبحانهُ أنه واحدٌ أحد، مستغنٍ عن كلِّ شيء، فلا شريكَ له، ولا مُعين.
{وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة إبراهيم: ٨]:
قالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ لقَومِه: اللهُ غَنيٌّ عن شُكرِكم وطاعَتِكم كُلِّها، وإذا كفَرتُم نِعَمَه، أنتُم ومَن في الأرضِ منَ النَّاس، فإنَّهُ غَنيٌّ بذاتِه، لهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا يَضُرُّهُ جَحْدُ مَن كفَر، ولا يَنقُصُ مِن مُلكهِ ولا يَزيدُ منها إيمانُ أحَدٍ أو كُفرُهم، وهوَ حَميدٌ مُستَوجِبٌ للحَمدِ بذاتِه، لنِعَمِهِ العَظيمَةِ المتتاليةِ على خَلقِه، وثَوابُ الحَمدِ والشُّكرِ يَعودُ عَليكم، فيَزيدُكم مِن فَضلِه، ويُصلِحُ بهِ حالَكم، ويَستَقيمُ بهِ أمرُكم، ولكم عَليهِ أجرٌ في اليَومِ الآخِر.

السجود لله وتقديسه

وتتجلَّى عظمةُ الله في سجودِ هذا الكونِ العظيمِ له!

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سورة الحج: ١٨].

تفسيرها: كلُّ شَيءٍ في هذا الكونِ بأمرِ اللهِ وإرادَتِهِ وتحتَ سَيطَرَتِه. ألم تَرَ أنَّهُ يَسجُدُ لعظمَتِهِ مَن في السَّماواتِ مِنَ الملائكة، ومَن في الأرضِ مِنَ الأناسيّ والجانّ والحيَوان، وكذلكَ الشَّمسُ، والقَمَرُ، والنجومُ الكثيرَة، والجِبالُ الكبيرَة، والشَجَرُ والنَّبات، وكُلُّ مَن دَبَّ على الأرض، فهذهِ كُلُّها مُنقادَةٌ لحُكمِهِ تعالَى، خاضِعَةٌ لأمرِه، خاشِعَة، مُسَبِّحَةٌ له، وكثيرٌ مِنَ الناس، ممَّن أسلمَ وَجهَهُ لله، يَسجُدُ لهُ طَوعًا، وكثيرٌ منَ الناسِ وجبَ عَليهمُ العذابُ بسبَبِ امتناعِهم واستِكبارِهم عنِ السُّجودِ لرَبِّهم.

ومَن أذَلَّهُ اللهُ وكتبَ عليهِ الشَّقاء، فلا يُكرِمُهُ بالسَّعادةِ أحَد، ولا يَدفَعُ عنهُ الهَوانَ الذي لَحِقَه، ولا يُثابُ بثَوابٍ حسَن، واللهُ يَفعَلُ ما يَشاء، فيُكرِمُ مَن شَاء، ويُهينُ مَن شَاء، بحُكمِهِ العَدْل.

كما تتجلَّى عظمتهُ من تقديسِ الكائناتِ له سبحانه. قالَ جلَّ مِن قائل:

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} [سورة الإسراء: ٤٤].

بيانُها: تُقدِّسُهُ السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُ ومَن فيهنّ، مِنَ الملائكة، والإنْس، والجِنّ، وما مِن شَيءٍ في الوُجودِ إلاّ ويُسَبِّحُ اللهَ ويَحمَدُه، ويَشهَدُ بوَحدانيَّتِه، ويَنطِقُ بعظمتِه، مِن حيَوانٍ ونَباتٍ وجَماد، طَوعًا أو كَرْهًا، كُلٌّ بطَريقتِهِ ولُغَتِه، ولكنَّكم لا تَفهَمونَ تَسبيحَهم، فأنتُم غَيرُ مُطَّلِعينَ على أسرارِ خَلقِهم، ولا تَعرِفونَ لُغَتَهم.

وقد أكَّدَ عالِمٌ يابانيٌّ مُتخَصِّص، هوَ رَئيسُ مَعهدِ هادو للبحوثِ العِلميَّة، أنَّ أيَّةَ ذَرَّةٍ في عالَمِ الوجودِ لها إدراكٌ وفَهمٌ وشُعور، وتُعَظِّمُ خالِقَها وتُسَبِّحُهُ عن بَصيرَة.

وملائكةُ اللهِ يُقَدِّسونَهُ ويُنَزِّهونَهُ باستِمرار، لَيلًا ونَهارًا، لا يَكِلُّونَ ولا يَضعُفون: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٠].

الحياة والموت

أجلٌ مَحدود، للأفرادِ والأمم:

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [سورة الأعراف: ٣٤].

أي: لكلِّ جيلٍ منَ الأجيالِ أمَدٌ مَحدود، فإذا جاءَ الوَقتُ المقدَّرُ لفَنائهم فإنَّهم لا يتأخَّرونَ عن أجلِهم ولا يَتقدَّمون؛ فلْتَتنبَّهْ إلى ذلكَ الأمَمُ الغافِلة، ولْتَستَيقظِ الأجيالُ النائمة.

أجلٌ محتوم:

{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الموْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [سورة النساء: ٧٨]:

لا مفرَّ من أمرِ اللهِ إذا جاء، أينما وُجِدتُم فإنَّ مصيرَكم إلى الموت، فلا بدَّ لكم منه، ولو كنتُم في قُصورٍ عاليَةٍ رفيعة، ومَنيعةٍ حَصينة، فلا يُغني حَذَرٌ وتَحَصُّنٌ عنِ الموت، إنْ جاهدتُم أو لم تُجاهدوا، فإنَّ الأجلَ مَحتوم، وكلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموت.

العلم الشامل

عِلمُ الله تعالى شاملٌ مطلق، بالماضي والحاضرِ والمستَقبل.
لا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِن الأشياء، في السَّماواتِ والأرض، مهما دقَّتْ وصَغُرت.
قالَ سبحانه: {إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [سورة آل عمران:٥].

وقالَ جلَّ مِن قائل:
{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الحديد: ٤].
أي: يَعلَمُ ما يَدخلُ في باطنِ الأرض، مِن قَطْرِ الماء، وبُذورِ النَّباتِ والشجَر، والرِّمالِ والصُّخور، والموتَى مِن أصنافِ الحيَوان... وما يَخرُجُ منها، مِنَ النَّباتِ والمعادنِ وغَيرِها: عَدَدِها، وكيفيَّتِها، ووَقتِها، وأينَ تَصير. ويَعلَمُ ما يَنزِلُ مِنَ السَّماء، من مَلائكة، وأرزَاق، وأمطَار، وأضوَاء... ونَحوِها. وما يَصعَدُ فيها مِنَ الملائكة، والأروَاح، والأعمَالِ الصَّالحة... واللهُ عالِمٌ بكم أينَما كنتُم، بَصيرٌ بما تَعمَلونَ مِن خَيرٍ وشَرّ، في السرِّ والعَلَن.

وقالَ لقمانُ الحكيمُ يعظُ ابنه:
{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان: ١٦]:
يا بُنَيّ، إنَّ الخَصلَةَ مِنَ الإساءَةِ والإحسَان، مَهما كانتْ صَغيرَةً حَقيرَة، كزِنَةِ حبَّةِ خَرْدَل، فتَكُونُ في أخفَى مَكان، كجَوفِ صَخرَة، أو في أيِّ مَكانٍ مِنَ السَّماواتِ والأرض، يُحْضِرُها الله، ويُحاسِبُ مَن عَمِلَ بقَدْرِها، إنَّ اللهَ لَطيفٌ بكيفيَّةِ استِخراجِها وإحضارِها، عالِمٌ بكُنهِها ومَكانِها.

وقالَ ربُّ العزَّة:

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة يونس: ٦١].

بيانها: وما تَكونُ في أمرٍ مِنَ الأمورِ أيُّها النبيّ، وما تَتلو مِن قُرآن، الذي هوَ مِن أعظَمِ شُؤونِك، ولا تَعمَلونَ أيَّ عمَلٍ منَ الأعمَالِ أيُّها النَّاس، إلاّ كُنّا شُهودًا عليكم، نَطَّلِعُ على أحوالِكم، ونَعلَمُ جَميعَ أمُورِكم، عندَما تَشرَعونَ فيها وتَخوضون، وما يَغيبُ عن ربِّكَ وَزنُ ذَرَّة، عالياً كانَ في السَّماء، أو أسْفلَ في الأرض، وأصغرَ مِن ذلكَ أو أكبر، وكلُّ ذلكَ مُثبَتٌ في اللَّوحِ المحفُوظ.

وقالَ جلَّ جلاله:

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة هود: ٦].

أي: ليسَت هُناكَ دابَّةٌ في الأرض، مِن إنسان، وحَيَوان، وطَير، وسَمَك، وحَشَرة... إلاّ وقد تَكفَّلَ اللهُ برِزقِها، فقد أودعَ في السَّماءِ والأرضِ أرزاقًا مَذخورةً تَكفيها كلَّها، وجعلَ في هذهِ الدوابِّ إمكاناتٍ لتَحصيلِها.

وعِلمُهُ مُحيطٌ بها جَميعًا، يَعلَمُ أينَ تَذهَبُ وأينَ تَجيءُ وأينَ تَقِفُ في سَيرِها، ويَعلَمُ أينَ تَبيتُ وتأوي، معَ كثرَتِها وتَنوُّعِها، وكلُّ ذلكَ مكتوبٌ ومُثْبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ خَلقِها: وجودُها، وتحرُّكُها، ورِزقُها...

وقالَ الله تعالى:

{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [سورة يوسف: ٧٦].

أي أنَّ اللهَ عَليم، وأحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَيء، وعِلمُهُ تعالَى فَوقَ عِلمِ كُلِّ العُلَماء.

واقرأْ قولَ ذي الجلال:

{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} [سورة الكهف: ١٠٩]:

قلْ أيها النبيّ: لو كانَ البَحرُ حِبرًا مُعَدًّا للقَلَمِ الذي تُكتَبُ بهِ كَلِماتُ رَبِّي، لفَنِيَ ماءُ البَحرِ قَبلَ أنْ تَنتَهي كلِماتُ رَبِّي، لعَدَمِ تَناهيها، ولو جِئنا بمثلِ ماءِ البَحرِ بُحورًا أخرَى تَمُدُّهُ بالماء.
فسبحانه!

ومثلهُ قولهُ جلَّ جلاله:
{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة لقمان: ٢٧]:
ولو أنَّ جَميعَ الأشجَارِ التي في الأرضِ بُرِيَتْ وجُعِلَتْ أقلامًا، وجُعِلَ البَحرُ مِدادًا، يَمُدُّ هذهِ الأقلامَ بهِ كُلَّما انتهَى مِدادُها، ومُدَّ هذا البَحرُ بسَبعَةِ أبحُرٍ أُخرَى بعدَ انتِهائه، وكُتِبَ بها كَلامُ الله، لَمَا نَفِدَ كلامُهُ سُبحانَه، لعدَمِ تَناهيه، واللهُ عَزيزٌ لا يُعجِزُهُ شَيء، قد غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه، حَكيمٌ في حُكمِهِ وأمرِهِ وجَميعِ شُؤونِه.
والمرادُ بالسَّبعَةِ الكَثرَةُ والمبالَغَة، لا الحَصر.

واللوحُ المحفوظُ فيه من العلومِ والأخبارِ والوقائعِ ما لا يعلمهُ إلا الله، ولا يعتريهِ تحريفٌ أو تبدل.
وقال الله تعالَى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [سورة يس: ١٢].
أي: جَميعُ الأشياءِ مَكتوبٌ ومَحفوظٌ في أُمِّ الكتاب: اللَّوحِ المحفوظ.

المشيئة

والله يفعلُ ما يشاء، ولا يُسألُ عمَّا فعل:

{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٣].

فهوَ سُبحانَهُ الحاكِمُ المطلَق، الحَكيمُ الذي لا يُخطِئ، العَدْلُ الذي لا يَظلِم، فلا يُناقَشُ ولا يُعتَرَضُ عَليه، والخَلقُ همُ الذينَ يَسألُهُمُ اللهُ عمَّا يَفعَلون، لأنَّهم مَملوكُونَ ومُكَلَّفونَ بما أمرَهم بهِ رَبُّهم، ومُحاسَبونَ على ما قَدَّموا مِن أعمال.

وعندما بُشِّر زكريا بولدٍ قال: يا رَبّ، وكيفَ يَصِيرُ لي وَلدٌ وقد أدركني كِبَرُ السنِّ وامرأتي عاقرٌ لا تُنجِب؟ قالَ ذلكَ اعتِداداً بنعمةِ الله، وتعظيماً لقدرتهِ وتَعجُّباً منها، لا استِبعاداً.

قالَ الله له: {اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [سورة آل عمران: ٤٠].

أي: هذا أمرُ الله، فلا يُعْجِزُهُ شَيءٌ ولا يَتعاظَمُهُ أمر، ويَفعلُ ما يشاءُ منَ الأمورِ الخارقةِ والصنائعِ البَديعة.

وكان رسولُ الله ﷺ حريصًا على إيمانِ المشرِكين، يحزنُ ويتأسَّفُ كثيرًا على تَكذيبِهم إيّاه، فأنزلَ الله تعالى:

{إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [سورة الشعراء: ٤]:

إذا شِئنا أنزَلنا عَليهم أمرًا قاهِرًا مِنَ السَّماءِ يُلجِئهم إلى الإيمانِ ويُجبِرُهم عَليه، فتظَلُّ أعناقُهم مُنقادَةً لهُ قَسرًا ولا يَعصُونَ الله، ولكنْ لا نُريدُ ذلكَ بهم، بل نُريدُ منهمُ الإيمانَ الاختِياريّ.

وقالَ عزَّ مِن قائل:

{وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير: ٢٩].

بيانُها: اعلَموا أنَّكم لا تَشاؤونَ الاستِقامَةَ إلاّ إذا وفَّقَكمُ اللهُ إليها، وشاءَتْ إرادَتُهُ ذلكَ سُبحانَه، فمَشيئتُهُ فَوقَ كُلِّ شَيء، وكُلُّ شَيءٍ في هذا الوجُودِ مرَدُّهُ إلى مَشيئتِه، وإذا عَلِمَ اللهُ استِحقاقَ

امرىءٍ للهدايَة والاستِقامَةِ يَسَّرَها له، وسهَّلَ أسبابَها عَليه، فيَكونُ لهُ الفَضلُ في هدايَتِهِ واستِقامَتِه.

الضرُّ والنفع

والضرُّ والنفعُ بيدهِ وحدَه، سبحانه!

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة يونس: ١٠٧].

معناها: إذا أصابَكَ اللهُ بسُوء، كشِدَّةٍ ومَرض، فلا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يَرفعَهُ عنكَ إلاّ هو، وإذا أرادَ أنْ يُصيبَكَ بخَير، كرِزقٍ وعافِية، فلا أحَدَ مِن خَلقِهِ يَستطيعُ أنْ يُبعِدَ فضلَهُ عنك، فالخَيرُ والفَضلُ بيدهِ سُبحانَه، والعُقوبَةُ والضرُّ بيَدهِ كذلك، يُعطيها ويوقِعُها بمَن شاءَ مِن عبادِه، بعَدلهِ وحِكمَته، فهوَ وحدَهُ المستَحِقُّ للعِبادة. وهوَ الذي يَغفِرُ ذُنوبَ التَّائبينَ المنيبين، ويَرحَمُهم إنْ أخلَصوا وصَدقُوا في تَوبتِهم، فلا يُعَذِّبُهم.

العزَّة والنصر

اللهمَّ إنَّكَ تَجعلُ مَن تشاءُ مِن عبادِكَ عَزيزاً كريماً، وتَجعلُ مَن تشاءُ منهم ذَليلاً مَهيناً، بالقِسطِ والعَدل، فميزانُ الحقِّ بيدِك، وكلُّ شيءٍ عندَكَ بميزان، والخيرُ كلُّهُ بيدِكَ وفي مُلكِك، وأنتَ قادرٌ على كلِّ شَيء، فتُعطي مَن تشاء، وتَمنعُ مَن تشاء، وما شِئتَ كان، وما لم تَشَأ لم يَكن.

قالَ ربُّنا جلَّ جلاله: {وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران: ٢٦].

والله متمُّ نوره...

{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة التوبة: ٣٢].

معناها: يُريدُ هؤلاءِ الكافِرون، منَ المشرِكينَ وأهلِ الكتاب، أنْ يُبطِلوا التَّوحيد، ويَردُّوا ما بُعِثَ بهِ رَسُولهُ مِنَ الهُدَى ودِينِ الحقّ، بجِداهِم وأقاويلِهمُ الباطِلة، كما يسعَى أحدُهم لإطفاءِ نورِ الشَّمسِ أو القَمر، وسَوفَ ينشرُ اللهُ دينَهُ الحقّ، وتَصِلُ أنوارهُ إلى أنحاءِ الأرض، كما تصلُ إليها أشعَّةُ الشَّمس، ولو كَرِهَ ذلكَ الكافِرون، وحاولوا منعَهُ بما يستَطيعونَ مِن مالٍ وإعلام، وجُندٍ وسِلاح.

ثم يقولُ سُبحانه:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}.

أي: هوَ اللهُ الحقُّ الذي بعثَ نبيَّهُ محمَّداً ﷺ بالقُرآنِ المبينِ لهِدايةِ الناس، وبالدِّينِ الثابتِ الصَّحيح، ليُعليَهُ على سَائرِ الأدْيان، بنَسخهِ إيّاها، والإبقاءِ عَلى الصَّحيح، ولو كَرِهَ ذلكَ أعداءُ الدِّين، ودَفعُوهُ بما يَقْدِرونَ عليه.

وفي غزوةِ بدرٍ كانَ المسلمونَ قلَّة، فاستغاثُوا بربِّهم أن ينصرَهم، فأجابَهم:

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال: ٩].

ثم قالَ سُبحانه: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

أي: ما جعلَ اللهُ إمدادَكم بالملائكةِ إلاّ بِشارةً لكم بأنَّكم ستُنصَرون، ولِتَسكُنَ نفوسُكم إلى ذلك، وتَهدأَ ولا تَجزَع، واللهُ قادرٌ على نَصرِكم على الأعداءِ بدونِ ذلك، وما النصرُ إلاّ مِن عندهِ سُبحانَه، وهوَ العَزيزُ القويُّ الذي لا يُغالَب، الحكيمُ فيما يَشْرَعُهُ مِن حَرب، ويَقضيهِ مِن تَدبير.

وبيَّنَ نصرَهُ لهم بقولهِ جلَّ جلالُه: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة الأنفال: ١٧].

بيانُها: فلم تَقتلوهُم أنتُم بقوَّتِكم وقُدرَتِكم، معَ كثرةِ عددِهم وقلَّةِ عددِكم، ولكنَّ اللهَ قتلَهُم بتَقويتِكم وإمدادِكم بالملائكة، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم.

وفي مُعجزة، تناولَ رَسولُ اللهِ ﷺ كفّاً منَ الحصَى ورمَى بها وجوهَ المشرِكين، فما بقيَ أحدٌ منهم إلاّ امتلأتْ عيناهُ منَ الحَصباء، كما صحَّحَهُ الهيثميُّ في مجمعِ الزوائدِ من روايةِ الطبرانيّ.

فقالَ اللهُ تعالَى ما معناه: وما رَميتَ أيُّها النبيُّ أعينَ المشرِكينَ عندَما رميتَهُم بالحصَى، ولكنَّ اللهَ رمَى بإيصالِ ذلكَ إلى وجوهِهم وعيونِهم بقُدرتِه، ليوهِنَهم ويَقهَرَهم، وليُنعِمَ على المؤمِنينَ بالنَّصرِ والغَنيمة، ليَعرفوا حقَّهُ ويَشكروا نِعمَتَه، واللهُ سميعٌ لدعائكم واستغاثتِكم. عليمٌ بنيّاتِكم وأحوالِكم.

واللهُ يَنصرُ مَن يشاءُ بعَدلهِ وحِكمته، ويعزُّ من يشاءُ كذلك:

{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٠].

معناها: إنْ يُرِدِ اللهُ نصرَكم ومنعَكم مِن عدوِّكم كما أرادَهُ يومَ بَدر، فلا أحدَ يَغلِبُكم، فلا قوَّةَ إلاّ به، ولا قُدرةَ بعدَ قُدرتِه، ولا مَشيئةَ بعدَ مَشيئته. ولا يَعني هذا عدمَ النُّهوضِ بالتكاليفِ، أو عدمَ بذلِ الجُهد، فإنَّ التوكُّلَ غيرُ التواكُل. ولا بدَّ أنْ يَنصُرَ المؤمنونَ دينَ اللهِ حتَّى يَنصُرَهم {إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [سورة محمد: ٧].

وإذا تَرَكَكم ولم يَنصُرْكُم كما كانَ يومَ أُحُد، فمَن يَقْدِرُ على نصرِكم بعدَ خِذْلانه؟ فتوكَّلوا على اللهِ أيُّها المؤمِنونَ حقَّ التوكُّل، ولا تَطلبوا النصرَ مِن غَيرِه.

وانتصارُ الحقِّ من أنواعِ النصر:

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء: ١٨]:

فليسَ مِن شَأنِنا اللَّهو، بلْ شأنُنا أنْ نُبَيِّنَ الحقَّ ونَغلِبَهُ على الباطِل، فيَمحَقُه، فإذا هوَ ذاهِبٌ مُضمَحِلّ، ولكمُ الهَلاكُ والعَذابُ أيُّها المشرِكون، ممّا تَصِفونَ بهِ الله، وتَكذِبونَ عَليه.

النجاة والخلاص

أيها المشركونَ والملحِدون، مَن يُخلِّصُكم منَ الشَّدائدِ والأهوالِ التي تُصيبُكم إذا كنتُم مُسافِرينَ في البَحرِ فأحاطَت بكمُ الأمواجُ مِن كلِّ مكان، وقَذفتْكُمُ الرياحُ العاتيَةُ في وسَطِ البَحر، أو في صَحارَى ومَهامهِ البَرّ، أو الجبالِ العاليةِ والأوديةِ العَميقة، أو وقَعتْ أحداثٌ طبيعيَّةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَره، فاهتزَّتِ الأرضُ وانفَجرتِ البراكينُ وهاجتِ الأعاصير، أو لازمتْكُمُ الأمراضُ ولا عِلاج، فتلجَؤونَ إليهِ وتَستَغيثونَ بهِ سرّاً وإعلاناً، قَلباً ولِساناً، مُخلِصينَ له الدِّين، لا تَدعونَ غيرَه، وتَقولون: لئنْ أنجانا اللهُ مِن هذا الكَرْبِ والضائقةِ لقدَّرنا نِعَمَهُ الجَليلة، وقُمنا بحقِّها كما يَنبَغي، حامِدينَ شاكِرين...

كما قالَ سبحانه: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام: ٦٣].

ثم قال سُبحانه:

{قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ}:

إنَّ اللهَ يُنَجِّيكم من هذهِ الكرُباتِ وغَيرِها، لكنْ بعدَ أنْ يبلِّغَكم بَرَّ الأمانِ ويُعافيَكم ممّا أصابَكم، تَعودونَ فتُشرِكونَ في عبادتِه، ولا توفُونَ بالعَهد.

رحمة الله العظيمة

وعندَما تَبدو العظَمةُ من الرَّحمة!

قال سُبحانهُ يصفُ رحمتهُ العظيمة: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٦].

بيانه: رحمَتي عَظيمةٌ شامِلةٌ عامَّة، فسأثبتُها لعِباديَ المؤمِنين، وأخُصُّ بها الذينَ يَبتعِدونَ عنِ الشِّركِ والمعَاصي، ويَخافونَ يومَ الحِساب، ويَخشَونَ عُقوبةَ الله، ويَدفعونَ زكاةَ أموالِهم للفُقراءِ والمساكين، ويؤمِنونَ بآياتِنا كلِّها.

وقالَ الله في رحمتهِ بيوسفَ عليه السلام:

{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة يوسف: ٥٦].

تفسيرُها: بتَمكينٍ لائقٍ ومُناسِب، جَعلنا ليوسُفَ العِزَّ والسُّلطانَ في أرضِ مِصر، يَتَّخِذُ مَنزِلاً في أيِّ مَكانٍ منها، بعدَ الضِّيقِ والأسْرِ والحَبْسِ الذي كانَ فيه. ونُصيبُ بفَضلِنا وعَطائنا مَن نشاءُ مِن عِبادِنا، بعَدلِنا وحِكمتِنا، ولا نُضِيعُ أجرَ مَن صَبَرَ على أذَى النَّاس، وأحسَنَ في صَبرِهِ واحتَسَب، حتَّى أتاهُ الفرَج.

ثمَّ قالَ عزَّ مِن قائل:

{وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}.

يعني ثَوابُ المؤمِنينَ الصَّابِرينَ في اليَومِ الآخِر، أعظَمُ وأكبَرُ ممّا يَكونُ في الدُّنيا، كما في شأنِ يوسُفَ عليهِ السَّلام، وغَيرِه.

واللهُ ألَّفَ بين المسلِمين برحمتهِ ولطفه:

{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال: ٦٣]:

واللهُ هوَ الذي ألَّفَ بينَ قُلوبِ المسلِمين، على ما كانَ بينهم في الجاهليَّةِ مِن عداوةٍ وضَغينة قاتِلة، ومِن حَميَّةٍ وعَصَبيَّةٍ عَمياء، وخاصَّةً الأوسَ والخزرجَ منَ الأنصار، الذينَ كادتِ الحربُ أنْ تُهلِكهم، فكانتِ الحروبُ بينهم لا تَنقَطِع، فجَمعهمُ الإسلامُ وصاروا إخوَةً يَتناصَرونَ في الحقّ، ويَتناصَحونَ على الخَير، ولو أنَّكَ أنفقتَ ما في الأرضِ من أموالٍ لتوثّقَ بَينهمُ المحبَّة، وتؤلّفَ بينَ قُلوبهم، لما استَطَعت، لتَناهي العَداوةِ بينَهم، وتَمَكُّنِ رُوحِ الانتِقامِ فيهم، ولكنَّ اللهَ بلُطفهِ ورَحمَتِهِ أوجدَ هذا التآلفَ بينَهم، ووطَّدَ روحَ المحبَّةِ والتآخي بينَهم، وهوَ سُبحانَهُ قَديرٌ على ذلك، عَزيزٌ لا يَصعُبُ عليهِ شَيء، حَكيمٌ، يدبِّرُ الأمورَ على أحسنِ وجه، وأفضَلِ مَقام.

وقالَ جلَّ جلاله:

{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢].

أي: قضَى اللهُ سبحانَهُ على نفسهِ المقدَّسةِ بأنْ يَرحمَ العِباد، ولا يُعَجِّلَ عُقوبتَهم، وأنْ يَقبلَ توبتَهم، إحسَاناً وتفضُّلاً منه، وسَوفَ يَجمعُكم جميعاً ليَومٍ لا شكَّ فيه، هوَ يومُ الحِساب، ويومُ الثَّوابِ والعِقاب، والخائبونَ الذينَ خَسِروا أنفسَهم في ذلكَ اليومِ همُ الجاحِدونَ المستَهزِؤونَ برسَالاتِ ربِّهم في الحياةِ الدُّنيا، المصِرُّونَ على الكفر، المستَكبِرونَ عن قَبولِ الحق، الذينَ لا يُصَدِّقونَ بالمعاد، ولا يَخافونَ سُوءَ ذلكَ اليَومِ وهَوْلَه.

وبرحمتهِ يَدخلُ أهلُ الأعرافِ الجنة، غيرَ خائفين ولا محزونين:

{ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [سورة الأعراف: ٤٩]:

وهم الذينَ استوَتْ حسناتُهم وسيّئاتُهم، يَنتَظِرونَ أنْ يَقضيَ اللهُ فيهم بما يَشاء، ثمَّ يُدخلهمُ الجنَّةَ برحمتِه. وكانوا في أعلَى السُّورِ الذي يَفصلُ بين أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النار.

وكانوا يَعرِفونَهم بعلاماتِهمُ المميَّزة، فيُنادُونَ أهلَ الجنَّةِ في تحيَّةٍ وإكرام: سلامٌ علَيكم. وهم لم يَدخلوا الجنَّةَ بعد، ولكنَّهم يطمَعونَ برحمةِ اللهِ ليَدخُلوها، فيكونُ لهم ذلك.

وإذا حُوِّلتْ أبصارُ أهلِ الأعرافِ إلى جِهةِ أصحابِ النَّار، ورأوا ما هم فيهِ مِن عَذابٍ ونَكال، قالوا مُتَعوِّذينَ بالله: ربَّنا لا تجمَعْنا معَ هؤلاءِ الكفّارِ الظالمينَ في النَّار.

العظمة والجلال في اليوم الآخِر

في يومِ القيامةِ تتجلَّى عظمةُ الله كذلك، وخاصةً يومَ الحسابِ والجزاء:

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: ٤].

فهو المتفرِّدِ بالحُكمِ يومَئذ، لا مُلكَ لأحدٍ سِواهُ.

{يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر: ١٦]:

في ذلكَ اليَومِ العَصيب، يَكونُ أهلُ المحشَرِ جَميعًا ظاهِرين، لا يَستُرُهم شَيء. ولِمَن يَكونُ المُلْكُ يَومَئذ؟ للهِ وَحدَه، فهوَ المتفَرِّدُ بالملك، الذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغلبَه.

الأمرُ سهل!

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم: ٢٧]:

هو اللهُ الخالِقُ القادِر، الذي يَخلُقُ ابتِداء، ثمَّ يُعيدُ الخَلقَ بعدَ الموت. والإعادَةُ أسهَلُ عَليهِ منَ الخَلق، وكِلاهُما بالنسبَةِ إلى قُدرَةِ اللهِ سَواء. والمرادُ تَقريبُ الأمرِ إلى عُقولِ الجهَلةِ المنكِرينَ للبَعث، فإعادَةُ إيجادِ شَيءٍ لهُ أثَر، أيسَرُ مِن إيجادِهِ مِنَ العدَم.

التغيُّر الرهيب:

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم: ٤٨]:

ويَومَ يأتيهمُ الحِساب، تَكونُ الأرضُ على غَيرِ هَيئتِها الآن، وكذلكَ السَّماواتُ، وخرجَ جَميعُ الخلائقِ مِن قُبورِهم، المؤمِنونَ والكافِرون، وظهَروا للهِ الواحِدِ الأحَد، الغالِبِ على كُلِّ شَيء، الذي دانَتْ لهُ الرِّقاب، وخضَعَتْ لهُ القُلوبُ والألْباب، ليَحكُمَ بينَهم، ويُجازيَهم على أعمالِهم.

{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [سورة الحاقة: ١٤]:

ورُفِعَتِ الأرضُ والجِبالُ التي فيها مِن أماكِنِها يومَ القيامة، فضُرِبَتا ضَربَةً واحِدَة، فبُدِّلَتِ الأرضُ غَيرَ الأرض، وصارَتِ الجِبالُ مِثلَ كُثبانِ الرَّمل، بَعدَما كانت حِجارَةً صمَّاء.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً} [سورة طه: ١٠٥]:
ويَسألُكَ النَّاسُ عن مَصيرِ الجِبالِ الرَّاسِياتِ في يَومِ القِيامَة، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُزيلُها كُلَّها مِن أماكِنِها، ويَمحَقُها حتَّى يَجعلَها كالرَّمل، وتَصيرَ هَباءً مَنثورًا.

أمرُ الساعةِ شيءٌ عظيم!
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}،
{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [سورة الحج: ١، ٢].

يومٌ يَشيبُ في الصغار!
{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً} [سورة المزّمّل: ١٧]:
فكيفَ تَقُوْنَ أنفُسَكم – إنْ كفَرتُم – عَذابَ يَومِ القِيامَة، الذي يَشيبُ فيهِ الأولادُ الصِّغار، مِن أهوالِ ذلكَ اليَومِ وكُروبِه؟

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]:
ويأمرُ اللهُ إسرَافيلَ فيَنفُخُ في الصُّوْرِ النَّفخَةَ الأُولَى، وهيَ نَفخَةُ الصَّعْق، فيَموتُ كُلُّ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرض، إلاّ مَن شَاءَ اللهُ ألاّ يَموتَ بتلكَ النَّفخَة، فيَقبِضُ أرواحَهم في وَقتٍ آخَر، ولا يَبقَى إلاّ هوَ سُبحانَهُ وتَعالَى. ثمُّ نُفِخَ في الصُّوْرِ نَفخَةٌ أُخرَى، فإذا هم أحياءٌ قائمونَ جَميعًا، يَنتَظِرونَ ما يُفعَلُ بهم.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة المؤمنون: ١٠١].

فإذا نُفِخَ في الصُّورِ لقِيامِ السَّاعَة، وقامَ النَّاسُ مِن قُبورِهم، فلا تَنفَعُ الأنسَابُ يَومَئذ، ولا يَسألُ قَريبٌ عن حَالِ قَريبِه، ولا صَديقٌ عن صَديقِه، بل يَفِرُّ كُلٌّ مِنَ الآخَرِ ويَشتَغِلُ بنَفسِه، لهَولِ ما يَراه، وعِظَمِ ما يَدهَمُه.

ويبقى الحيُّ الذي لا يموت:

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن: ٢٦-٢٧]:

كُلُّ مَن على الأرضِ مِنَ المخلوقاتِ هالِكٌ ميّت.

ويَبقَى اللهُ وحدَه، فهوَ الحيُّ الذي لا يَموت، العَظيمُ المنفَرِدُ بالجَلالِ والكبرياء، ذو الإنعامِ والإكرام.

وسلسلةٌ رهيبةٌ من التغيراتِ والإجراءاتِ تحدثُ يومَ الحشر:

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير: ١-١٤].

بيانُها:

إذا الشَّمسُ ذهَبَتْ واضمَحلَّت. أو ذَهَبَ ضَوؤها.

وإذا النُّجومُ سقَطتْ وتَناثَرت.

وإذا الجِبالُ أُزيلَتْ مِن أماكِنِها بالرَّجفَةِ ونُسِفَت.

وإذا الإبِلُ تُرِكَتْ وسُبيَت. تركَ النَّاسُ نَفائسَ أموَالِهم، فقد جاءَ ما يُذهِلُهم عَنها.

وإذا جُمِعَتِ البَهائمُ مِن كُلِّ جانِب، وقد كانتْ نافِرَةً شارِدَةً في الشِّعاب، ونَسِيَتْ فَرائسَها ومَخاوِفَها، فهالَها الرُّعبُ والهَولُ واجتمَعَت.

وإذا البِحارُ أُحمِيَتْ فصَارَتْ نارًا تَضطَرِم.

وإذا جُمِعَتْ كُلُّ نَفسٍ إلى مَثيلَتِها، فيَكونُ المؤمِنُ معَ المؤمِن، والكافِرُ معَ الكافِر.

وإذا سُئلَتِ البِنتُ التي دُفِنَتْ حيَّة؟ فقد كانَ الجاهليُّ الذي يَدفِنُها يَطرَحُ عَليها التُّرابَ حتَّى يؤدَّها، أي يُثقِلَها، فتَموت. ما الذي أخطَأَتْ فيه، وما هوَ الجُرمُ الذي ارتَكبَتْهُ حتَّى تُقتَل؟!

وإذا نُشِرَتْ صُحُفُ الأعمَال، فنظرَ كُلٌّ في صَحيفَتِه، ليَجِدَ كُلَّ ما عَمِلَهُ في الدُّنيَا مَكتوبًا فيها، فيُحاسَبُ عَليها.

وإذا السّماءُ نُزِعَتْ وأُزيلَت، فذَهبَت.

وإذا أُحمِيَتْ جهنَّمُ وأُوقِدَتْ إيقادًا شَديدًا لأعدَاءِ الله. قالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ الله: سعَّرَها غضَبُ الله، وخَطايا بَني آدم.

وإذا الجَنَّةُ قُرِّبَتْ لعِبادِ اللهِ المؤمِنينَ المخلِصين.

عَلِمَتْ عندَ ذلكَ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن خَيرٍ وشَرّ، بما تَراهُ في صَحيفَةِ أعمالِها.

في حَديثٍ صَحيحٍ أو حسَن، قَولُهُ ﷺ: "مَنْ سرَّهُ أنْ يَنظُرَ إلى يَومِ القِيامَةِ كأنَّهُ رَأيُ عَين، فليَقرَأ {إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} و{إذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ} و{إذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}". رَواهُ أحمَدُ والحاكمُ والترمذيّ.

سلسلةٌ أخرى من الحوادثِ والتغيرات:

{إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [سورة الانفطار: ١-٥].

بيانُها:

إذا السَّماءُ تَصدَّعَتْ بأمرِ الله.

وإذا الكوَاكبُ تَساقَطَتْ مُتفرِّقَة.

وإذا البِحارُ فُجِّرَ بَعضُها في بَعض، فاختلَطَ العَذبُ بالمالِح. أو انتهَى ماؤها بتَفجيرٍ لا يَعرِفُ كيفيَّتَهُ الإنسَانُ.

وإذا قُلِّبَ تُرابُ القُبورِ وبُدِّدَ ليَخرُجَ مَن فيها.

فإذا كانَ ذلكَ وعرَفَ الإنسَانُ أنَّهُ بُعِثَ للحِسابِ والجَزاء، ونُشِرَتْ صُحُفُ الأعمَال، عَلِمَتْ كلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن أعمَالٍ صَالحةٍ وسَيِّئة، قَديمِها وحَديثِها، أوَّلِها وآخِرِها.

وقالَ الله تعالَى:

{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سورة الزمر: ٦٩]:

وأضاءَتْ أرضُ المحشَرِ يَومَ القِيامَةِ بنُورِ خالقِها، ووُضِعَتْ صَحائفُ الأعمَالِ للحِساب، وجِيءَ بالنَّبيّينَ ليَشهَدوا أنَّهم بلَّغوا أُمَمَهم رِسالاتِ رَبِّهم، وجِيءَ بالشُّهَداءِ مِنَ الملائكةِ الحفَظَةِ على أعمَالِ العِباد، وهم لا يُظلَمونَ شَيئًا مِن ثَوابِ أعمالِهم، فلا يُنقَصُ مِن أَجر، ولا يُزادُ في عِقاب.

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء: ٤٧]:

ونُحضِرُ الميزَانَ الذي تُوزَنُ بهِ صَحائفُ الأعمالِ يَومَ الحِسابِ بالحَقِّ والعَدل، ولا يُظلَمُ أحَدٌ في ذلكَ اليَوم، فلا يُنقَصُ مِن ثَوابِهِ إنْ أحسَن، ولا يُزادُ في عُقوبَتِهِ إنْ أساء، وإنْ كانَ عمَلُهُ زِنةَ حَبَّةِ الخَرَدَلِ في صِغَرِها وقِلَّتِها جئنا بها، وكفَى بنا مُحصِينَ لتِلكَ الأعمَال، فلا يَخفَى عَلينا منها شَيء.

{يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} [سورة طه: ١٠٩]:

في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، لا تَنفَعُ شَفاعَةُ أحَدٍ لأحَد، إلاّ إذا أَذِنَ اللهُ لهُ ورَضيَ بشَفاعَتِهِ ومَقولَتِه، وكانَ مؤمِنًا.

عقوباتٌ أُخرويةٌ رهيبة:

{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً} [سورة الأحزاب: ٥٧]:

إنَّ الذينَ يؤذُونَ الله، بالكُفرِ به، أو الشِّركِ وما إليه، ويُؤذُونَ رَسُولَه، بتَكذيبِه، والاستِهزاءِ به، أو رَميهِ بالكَهانَةِ وغَيرِها ممّا يَمَسُّ نبوَّتَه، لعَنَهمُ اللهُ وأبعَدَهم مِن رَحمَتِه، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، وهَيَّأ لهم عَذابًا مُذِلاً ومُهينًا في الآخِرَة.

{وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [سورة التوبة: ٦٨].

معناها: وعَدَ اللهُ المنافِقينَ والمنافِقاتِ الذينَ يُظهِرونَ الإيمانَ ويُبطِنونَ الكُفر، والكافِرينَ الذينَ يَجهَرونَ به، وعَدَهُم نارَ جهنَّمَ تُسْعَرُ بهم جزاءَ كُفرِهم، مؤبَّدينَ فيها، وفيها ما يَكفِيهم منَ العِقابِ والعَذاب، وأبعدَهمُ اللهُ من رَحمَتِهِ وأذَلَّهم، فلا أملَ في خَلاصِهم ممّا هم فيه، فلهم عذابٌ دائمٌ لا يَنقَطِعُ أبداً.

وصفٌ آخرُ لعذابِ الكفَّار:

{لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} [سورة الزمر: ١٦]:

لهم مِن فَوقِهم أطبَاقٌ مُظلِمَةٌ مِنَ النَّار، ومِن تَحتِهم كذلك، فهيَ مُحيطَةٌ بهم مِن كُلِّ مَكان. وبذِكرِ هذا العَذابِ الفَظيعِ يُخَوِّفُ اللهُ عِبادَه، ليَخافُوا فيَنزَجِروا عنِ المحَرَّماتِ والمعاصي، يا عِبادي فاخشَوا بأسي ونِقمَتي، ولا تَتعَرَّضوا لِما يُوجِبُ سخَطي.

أوصافٌ مخيفةٌ لأهلِ النار:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ} [سورة الغاشية: ٢-٧].

تفسيرها:

وجُوهٌ في ذلكَ اليَومِ تَكونُ ذَليلةً مُهانَة.

عَمِلَتْ وجَهَدَتْ وتَعِبَتْ في الدُّنيا، ولكنْ لغَيرِ اللهِ تَعالَى، وعلى غَيرِ مِلَّةِ الإسلامِ التي ارتَضاها لعِبادِه، مثلَ النَّصارَى وغَيرِهم.

تُلقَى في نَارٍ شَديدَةٍ مُتَناهيَةٍ في الحرّ.

تُسقَى مِن عَينٍ حارَّةٍ بجهنَّم، شَديدَةِ الغلَيان.

ليسَ لهم فيها طَعامٌ إلاّ مِن شجَرٍ يُقالُ لهُ ضَرِيع، في غايَةِ النَّتْنِ والمرارَة.

هذا الطَّعامُ الخَبيثُ لا يُسمِنُ بدَنًا مِن هُزال، ولا يَسُدُّ جُوعَ صاحبِه، بل يَزيدُهُ ألَمًا وعَذابًا.

آياتٌ أخرى رهيبة:

(سورة المعرج ١١-١٨):

{يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}:

يَتمَنَّى الكافِرُ يَومَئذٍ لو يَفتَدي نَفسَهُ مِنَ العَذابِ الذي ابتُليَ بهِ بأولادِهِ، وهم مُهجَةُ قَلبِه،

{وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ}:

وزَوجتِهِ التي كانَ يَحميها ويُدافِعُ عنها، وأخيهِ الذي مِن أُمِّهِ وأبيه،

{وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ}:

وعَشيرَتِهِ التي كانت تَضُمُّهُ ويَلوذُ بها، وقدِ انفصَلتْ عَنه، وصارَ كُلٌّ لنَفسِه،

{وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ}:

وجَميعِ مَن في الأرضِ مِن الخلائق، يوَدُّ لو يَفتَدي بهم جَميعًا ليتخلَّصَ مِنَ العَذاب.

{كَلَّا إِنَّهَا لَظَى}:

كلاَّ، لا يُنجيهِ مِن عَذابِ اللهِ شَيء، إنَّها جهنَّمُ التي تَتلهَّبُ نارُها وتتَّقِد،

{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى}:

ولشِدَّةِ حَرِّها تَنزِعُ الجِلدَ واللَّحم،

{تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى}:

تُنادي النَّارُ أبناءَها مِنَ المشرِكينَ والمنافِقين، الذينَ أدبَروا في الدُّنيا عنِ الإيمَان، وأعرضُوا عن طاعَةِ ربِّهم،

{وَجَمَعَ فَأَوْعَى}:

وجَمَعوا المالَ وجعَلُوهُ في كَنوزٍ ولم يُؤَدُّوا حقَّهُ للمُحتاجين.

××× ××× ×××

الملائكةُ الكرام:

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الزمر: ٧٥]:

وترَى الملائكةَ مُحْدِقِينَ مِن حَولِ عَرشِ اللهِ العَظيم، وهم يُقَدِّسُونَ رَبَّهم ويُمَجِّدونَهُ ويَحمَدونَه، وقُضِيَ بينَ الخَلائقِ بالقِسطِ والعَدل، والحَمدُ للهِ والشُّكرُ لهُ على حُكمِهِ وعَدلِه.

الجزاءُ الجميلُ والخلودُ لأهلِ الإيمان.

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً} [سورة الأحزاب: ٤٤]:

والتحيَّةُ التي يُحَيَّا بها أهلُ الجنَّةِ يومَ لِقاءِ اللهِ تعالَى، هوَ قَولُهُ جَلَّ جَلالُهُ لهم: سَلَام، ويَعني: سَلِمتُم مِن كُلِّ مَخُوف، وهَنِئتُم بكُلِّ خَير. وهيَّأ اللهُ لهم مَكانًا حسَنًا وثَوابًا طيِّبًا.

أوصافُ جميلةٌ للجنةِ وأهلِها:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ. فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ. وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [سورة الغاشية: ٨-١٦].

تفسيرُها:

وجُوهٌ أخرَى يَومَ القِيامَةِ تَكونُ مُبتَهِجَةً بَهيَّة، مُشرِقَةً ناضِرَة.

لعمَلِها الذي عَمِلَتْهُ في الدُّنيَا رَاضيَةٌ مُطمَئنَّة،

في جنَّةٍ رَفيعَةٍ عاليةِ الدَّرَجات،

لا تَسمَعُ فيها كلامًا باطِلاً، وخُصومَةً وصَخَبًا.

فيها عَينٌ سارِحَة، لا يَنقَطِعُ مَاؤها.

فيها أسِرَّةٌ عاليَةٌ، ناعِمَةٌ مُزيَّنة.

وأواني الشَّرابِ لهم مُهيَّأة، قَريبَةُ التَّناول.

ووسَائدُ مَصفوفَةٌ بَعضُها إلى جَنبِ بَعض.

وبُسُطٌ مُفرَّقَةٌ مَفروشَةٌ في المجالسِ هُنا وهُناك، للرَّاحَةِ والزِّينَة.

الفهرس

مقدمة..... ٣

الله عظيمٌ في ذاته..... ٤

العظمة في القدرة والخَلق..... ٩

الملك والتصريف والتدبير..... ٢٦

العظمة في الأمر والحُكم..... ٣١

العظمة في التحدي والإعجاز..... ٣٧

تذكير وتخويف وإنذار..... ٤٣

العظمة في العقوبةِ الإلهية..... ٤٧

العظمة في الإنعام والتسخير..... ٥٦

عظمة الثواب..... ٥٨

العظمةُ في التوحيد، والاستغناءِ عن عبادة الناس وحمدهم..... ٦١

السجود لله وتقديسه..... ٦٣

الحياة والموت..... ٦٥

العلم الشامل..... ٦٦

المشيئة..... ٦٩

الضرُّ والنفع..... ٧١

العزَّة والنصر..... ٧٢

النجاة والخلاص..... ٧٥

رحمة الله العظيمة..... ٧٦

العظمة والجلال في اليوم الآخِر..... ٧٨

الفهرس..... ٨٦